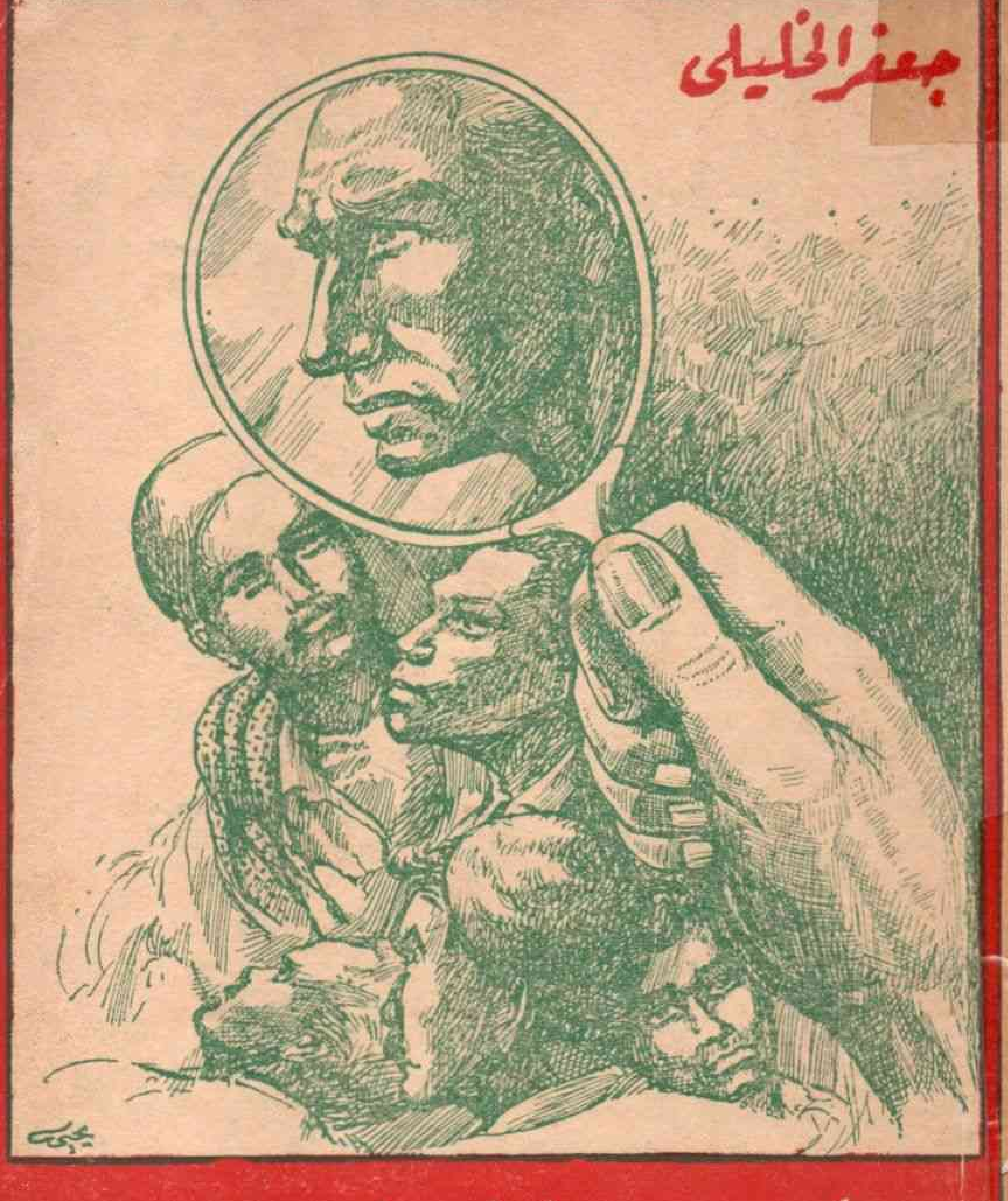
جعفر الخليلي



هؤلاء الناس

هؤلاء الناس

بقلم

جعفر الخليلي

مطبعة المعارف ـ بغداد

١٩٥٦

الاهداء

انها صور بعض الناس
في بعض حياتهم العامة
والخاصة فمن الجدير أنه
تهدى لهم لانها منهم
واليهم .

المؤلف

هؤلاء الناس

هؤلاء الناس المنثورون هنا على الورق خطوطاً وحروفاً ونقطاً ، هم انفسهم الدابون على الأرض ، والماخرون في البحار ، والطائرون في الجو .

انهم بلحمهم ودمهم ، بخيرهم وشرهم ، بجدهم وهزلهم ، بسعادتهم وشقائهم ، مرئيون بهذه العدسة ، مقرؤون بهذه الصور ، مفهومون بهذه الحروف ، ومع ذلك فليس هؤلاء هم كل الناس بجميع خصائصهم وصفاتهم ومكنوناتهم ، ذلك لأن العدسة هنا لم تستوعب اكثر من هذه الصور ، ولأن اشعة العين لم تنفذ لأبعد من هـذا المدى ، فكان (هؤلاء الناس) المصورون هنا ، بعض الناس الماثلين هناك .

وخير ما في (هؤلاء الناس) انهم يحكون جانباً من الحياة يتساوى فيه الرجل والمرأة ، والفتى والفتاة ، والصبي والصبية

فهو الجانب الجدير بأن يقرأه مختلف الجنسين في مختلف الأدوار دون أن يكون ثمة محظور ، ودون أن يختص به قوم دون قوم ؟

بغداد ـ كرادة مريم ١٩٥٦ جعفر الخليلي

غفوة وانتباهة

هذه عشر سنوات تمر على انتهاء الحرب الثانية . وعشر سنوات تكفي لأن يسحب فيها المرء المياه من مسافة عشرات الأميال الى الأرض السبخة المالحة القاحلة ليغمرها به ثم ليحول تلك التربة البيضاء التي يلمع ملحها كاللجين الى تربة غرينية من أجود ما ينشدها المزارعون لمزارعهم ثم يحيل تلك البقعة الى جنة من نخيل وأعناب ، وتين وزيتون فلا يأتي على نهاية السنة العاشرة والا ويكون قد نسي من تاريخ هذه الأرض أو تاريخ هذا الانقلاب على الأصح كلما لم ينس، فاذا بهذه الفواكه وهذه البقول ، وهذه الأثمار، ثم هذه الأزاهير العبقة ، إذا بها تأخذ من عينيه ومن قلبه ومن وجوده كل مأخذ فلا يكاد يعرف شيئاً غير ما يرى وغير ما يلمس .

ان عشر سنوات زمن يكفي لحدوث انقلاب كبير في

الدنيا وتغيير أحوال كثيرة لصور مختلفة متباينة ولكن (رئيفاً) هذا الشاب الذي اعتاد أن يضع الأشياء في مواضعها عجز أن يغير ويبدل شيئاً من هذه الفكرة المتمكنة من رأسه وأخفق أن يقيم بين منشأ هذه الفكرة التي صارت تنغص حياته سداً أو شبه سد يخفي عنه دقائق تلك الحادثة العالقة بذهنه .

لقد عمل رئيف كما يعمل الزارع ليقتلع أصول تلك الأشواك ويستأصلها من جذورها بشتى الطرق وليحولها خميلة زاهية بألوانها ، عابقة بأشذائها ، تنسيه كل شيء من أمر تلك الاشواك ولكنه لم يفلح ، ويا ليته لم يفلح وحسب بل ظلت تلك الاشواك تخزه ويشتد وخزها بمرور الزمن فكأنها لم تنبت إلا منذ يوم بل منذ ساعة .

ورئيف هذا شاب على أبواب العقد الرابع من العمر وهو من الشباب الذين أوتوا من الملكات الذهنية والقابليات الأدبية والخلقية ما جعله يحسن وضع الامور في مواضعها ويفهم لنفسه قيمتها الصحيحة التي لا تزيد ولا تنقص ، واذ الذي يعرف قيمة نفسه يعرف قيمة الناس ويعرف قيمة الأشياء

لذلك سرعان ما استلفت رئيف نظر رؤسائه اليه وسرعان ما شغل من نفوس المواطنين الذين يعمل معهم بدائرة ضباط الارتباط بعصر طوال أيام الحرب مكانة مرموقة ومقاماً محترماً.

وعلى أن تلك الصفات التي يتحلى بها رئيف كافية لتحبيبه الى نفوس عارفيه فقد كان له شيء أسبق من كل هذا أو أظهر على الاصح في اجتذاب النفوس وعلاقتها به وكان ذلك هو السخاء المجبول عليه.

والسخاء عند رئيف طبعي أصيل يلمسه الجميع في الارتياح البادي عليه حين يستدين منه أحد مبلغاً أو حين يقتسم وأصحابه ما يصل اليه من هدايا أو ما يغنمه من أشياء أو حين يجيب بعض أخوانه دعواته الكثيرة لتناول الغداء في مطعم من مطاعم القاهرة أو تناول الطعام على مائدة المكتب، ولم يذكر انداد رئيف وزملاؤه ساعة ولا بعض ساعة ضاقت فيها نفس رئيف بمن يعرف أو لم يعرف ، فهو في كل حين يحسب لكل شيء حسابه إلا المال وإلا الصرف ذلك لأنه سخي بالطبع كما قلنا ، والسخي بالطبع لا يقيم للمال وزناً ولا بعض وزن .

وكان بين موظفي مكتب الارتباط فتاة تعرف بـ « المس ماكري » على جانب من اللباقة والكياسة والجاذبية تنطق بمقدار، وتمشي باتزان، وتعمل بتؤدة، وقد جعلت هذه السيرة منها شخصية محفوفة بالتجلة ومحوطة بالاحترام حتى إذا مرت لا يعرف منها من أسبق الى أخذ موقعه من نفوس المستعرضين أهو الوقار أم الجمال ؟

وكان لرئيف بالمس ماكري أكثر من علاقة الاعجاب والاكبار . لقد كان له بها افتتان أو ما يشبه الافتتان على الأقل .

وذات يوم وهما يوقفان سيارة أجرة ليقطعا طريقاً موحداً الى حد ما ، فما كادت تتقدم المس ماكري ركوب السيارة وتهم بالجلوس حتى لمحت ورقة نقدية من فئة المئة جنيه وقد طويت نصف طية فيما تكاد تقع تحت قدميها من مقعد السيارة وكان رئيف قد ولج هو الآخر السيارة خلفها وقد رآها تنحني وتتناول شيئاً ما ولكنه لم يدر ما هو هذا الشيء وكلما لفت نظره بعد ذلك هو ان الفتاة قد غرقت فيما يشبه الحلم وان

وجهها قد بدأ ينم عن شيء من الاضطراب كما لو كانت تتنازعها فكرتان عنيفتان متناقضتان في بحران من الاشتباك دام بضع دقائق واكثر ثم انطلقت بعد ذلك اساريرها وزال اضطرابها وتملكت نفسها ، شأن من تظفر به فكرة واحدة لا تدع ما يحول دون تنفيذها حائلا ومدت يدها بالورقة النقدية وهي على طيتها الى رئيف وقالت :

ـ ربما كانت تخصك يا سيد رئيف ؟ . .

ولم يكن من رئيف ـ وقد رأى ان اللقطة ورقة نقدية ـ إلا أن مد يده اليها وتناولها منها ثم دسها في جيبه كما لو كان امام امر اعتيادي .

وبلغ رئيف المحل الذي يريد من الطريق فنزل . أما المس ماكري فظلت السيارة تمشي بها حيث تريد .

وما كادت السيارة تبتعد حتى اخرج رئيف الورقة النقدية ليتأملها جيداً وليتحقق من كونها ورقة نقدية صحيحة فقد كان يوم ذاك في ازمة مادية ، وحاجة جد ماسة الى النقود وبدل ان يقصد الجهة التي يريد عرج على أحد الصرافين

فصرف عنده الورقة وبدلها بأوراق اخرى من فئة العشرة والخمسة جنيهات ثم سار في طريقه ثملا بفكرة المصادفة الجميلة واجداً في المبلغ كل الفرج لما هو فيه من ضيق وحرج .

وجالت في ذهنه - وقد اوى الى فراشه - افكار ما كان يسمح بها ازدحام النهار والجلبة ان تجول في ذهنه قبل ان يأوى الى الفراش ويستلقي على ظهره .

لقد بدأ يفكر في هذه اللقطة السعيدة وتفريجها لكربه ويفكر في كيفية تناول المس ما كري اياها ؟ وكيف تنازعتها العوامل والافكار في ان تدفع بالورقة اليه على أساس اقتسامها ؟ ام تحتفظ بها لنفسها دونه؟ ام تتجاهل امرها فتدفع بها اليه على اعتبار انها تخصه وحده؟ حتى تغلبت عليها الفكرة الاخيرة ، ثم احتشد عدد من الأسئلة والاستفهامات في ذهنه :

- أحقاً انها قد دفعت الورقة اليه على سبيل الايثار ؟ احقاً انها قد فعلت ذلك من اعماق قلبها ام انها كانت تريد ان تختبره وتريد ان تمتحن سلوكه ونزعته في دنياه ؟ فلقد كانت من الاتزان والوقار بحيث يعسر عليه ان يستكنه حالها

بسهولة ويعرف من امرها ما ينبغي ان يعرف .

وطال تفكيره في الامر وكثرت الأسئلة التي القاها على ذهنه وتعددت ، واخيراً صمم على ان يحصر كل افكاره في الطريقة المثلى التي يحسن بها التخلص مما هو فيه من افكار متضاربة ،فلم يكد يصبح الصباح حتى كان رئيف اول الحاضرين من موظفي المكتب ، ولم يكد يعرف ان المس ماكري قد صارت وراء مكتبها حتى كان اول الداخلين عليها وكان اول ما قال لها هو :

ـ كم هو جميل يا مس ماكري ان تعلمي بأن الورقة التي اعطيتنيها امس كانت ممزقة وقد القيت بها بعيداً .

اما المس ماكري فلم تفعل شيئاً اكثر من ان هزت رأسها هزة خفيفة علامة اللامبالاة وعدم الاهتمام .

وما كاد رئيف يخرج من مكتبها ويقصد غرفته حتى تناول امراً بالسفر الى الاسكندرية حالا ومن هناك تلقى أمراً بالسفر الى القدس وكانت الحرب قد القت اوزارها وكان العمل قد خف وكانت المقتضيات تستدعي اعادة رئيف الى القاهرة

بعد غيبة شهور ، وعاد فاذا بالمس ماكري قد تركت العمل وقد سافرت الى اوربا ، وفي هذا الوقت تحسس بأنه كان فيما يشبه الغفوة العميقة وقد بدأ ينتبه فاذا به ينظر الى نفسه نظرة فيها شيء كثير من الامتهان والاحتقار ، صحيح انه كان قد أنفق على المس ماكرى الكثير على سبيل الهدايا والدعوات ، وصحيح إن هذه اللقطة في عرف الانصاف يجب أن تكون ملكه دون أن يشركه فيها أحد ،ولكن كيف سمح لنفسه وهو كمن يعرف عن نفسه ويعرف عنه الاصدقاء أن يتناول الورقة النقدية منها دون أن تتنازعه الافكار كما تنازعتهـــا ودون أن يضطرب ويربد وجهه كما اضطربت هي واربد وجهها . أفلم يعرف نفسه كريماً لا يعبأ بالمال ولا يقيم وزناً للمادة ؟ أفيسوغ له أن ينسى ذلك كله ويتناول المبلغ لأنه كان قد انفق على المس ماكري كثيراً من قبل ؟ وانه كان بأشد الحاجة الى المـــال في تلك الساعة وهو الشرقى المثالي ، وهي المرأة الغربية المجبولة على حب المادة ؟ فكيف رضي أن يكون دونها اعتزازاً بالروح والخلق الكريم حتى لم يستح أن يقابلها فيقول لها ان الورقه كانت مزيفة

فيكون عذره أقبح من فعله ، كل هذا بدأ يمر على ذهن رئيف ثم يتكاثف ويتجسم ويتوسع حتى تأخذ هذه الافكار عليه طريقه فلا يعرف اين هي المس ماكري الآن ليكتب لها وليقول انه بدا يظهر صغيراً أمام نفسه منذ أن تناول منها الورقة النقدية وان الورقة لم تكن مزيفة ، وانها لم تخصه كما هي تعلم في قرارة نفسها ، وان لا جواب له على ما بدا منه إلا أن يقول بأنه كان فيما يشبه الغفوة وقد بدأ الآن يستيقظ وانه لن يهدأ له بال ما لم يعثر عليها ليحول لها المبلغ الذي هي أحق به منه مشفوعاً بالاعتذار .

وطالت الايام فطال تعذيبه ولم يترك وسيلة دون أن يستخدمها ، ولا عنواناً سمع به دون ان يكتب اليها بواسطته فلم يحصل على نتيجة .

ومرت اربع سنوات وفي ذات يوم وهو يحاول ركوب الطائرة من مطار بيروت واذا بصوت (المكبرة) ينادي باسم المستر ماكري لمراجعة مكتب الجوازات بالمطار . ولم يكد يسمع رئيف باسم المستر ماكري حتى راح يتصفح الوجوه وجهاً وجهاً

ولم يحتج الى كبير عناء ليجد المستر ماكري ، وليقف أمامه ليسأله بلهفة :

- أيسمح لي سيدي بالتطفل عليه والسؤال منه عما إذا كان يعرف المس كانديا ماكري ؟

فانطلقت أسارير الرجل وقال :

- بكل تأكيد . . انها من أسرتي في الصميم .

وحين حصل رئيف على عنوان المس ماكري شعر بأنه قد ملك الدنيا بأسرها .

وكتب لها . لقد كتب لها بكل شيء ، وانتظرها شهوراً فلم تجب ، ثم كرر لها الكتابة وانتظر فلم تجب ، ولم يزل يكتب لها بين آونة وأخرى ليتخلص مما هو فيه من عذاب التأنيب وتبكيت الاحاسيس والشعور بالخجل الذي لا عهد له بمثله قبل هذه الحادثة وهو يجزم كل الجزم بأن المس ماكري لم تفتح من رسائله ولا كلمة واحدة ولكنها لا تزال موقنة - كما يقول رئيف - موقنة بأن الشخص الذي تناول منها الورقة النقدية بتلك الصورة لا يستحق أن تقرأ له المس ماكري رسائله وتجيب عليها ؟

صلوا على محمد

كان يعرف نفسه خفيفاً ظريفاً ، يعرف ذلك من كثرة مزاح الاصدقاء والاخوان ومن كثرة مداعبتهم له ، وكثرة تفقدهم اياه ومن الالتفاف حوله حتى في ساعة الدرس ، وقد يتجاوز مزاحهم الحد المحدود وقد يبلغ مبلغاً يكاد يجرح منه الكرامة . بل وقد يجرح الكرامة بالذات . ولكن (غثيثاً) او الشيخ غثيث كان يتقبل تلك الالوان المختلفة من الدعابة والمزاح بصدر رحب لا يحاكي رحابته (المسجد الهندي) الواسع الذي يقرأ فيه الشيخ غثيث مقدمات اللغة العربية في النجف .

وغثيث هذا عبد اسود وليد أبوين زنجيين كانا مملوكين لأحد رؤساء العشائر في أقصى جنوب العراق من (سوق الشيوخ) أعتقهما سيدهما في آخر أيام حياته تقرباً لله فكان لهما بعض الشأن بين المربوبين المعتقين ، وآية هذا الشأن هو نشوء

ابنها (غثيث) في زمرة أبناء سيدها، واصطحبا بهم اياه كزميل ورفيق في الملعب وفي المكتب وفي كثير من المجالس والمشاهد .

وحين صار غثيث فتى يافعاً ارسله ابوه الى النجف ليتفقه في الدين وليكون شيخاً فكان الشيخ غثيث .

وما لبث الطلاب أن اكتشفوا في هذا الزميل الجديد سذاجة هي عنوان القروى منذ أن كانت القرية ، لا فرق بينها وبين القرية القديمة أو القرية الحديثة هنا في العراق أو في أية بقعة من بقاع الارض .

وبعض هذا الصنف من الطلاب طلاب النجف ينشد سلواه أكثر ما ينشد في البحث عن السذج والبسطاء ليتخذ منهم مواضيع تقوم مقام السينما ومسارح التمثيل ودور اللهو في المدن والحواضر الاخرى ، فلا يترك هـذا البعض من الطلاب وسيلة من وسائل الضحك والدعابة والمزاح إلا واستعملوها ضمن حدود محدودة تتناسب وما هم فيـه من وقار يتصف به طلاب العلوم الدينية متخذين من اولئك السذج على قـدر ما تسمح به سذاجتهم ابطـالا لهزلهم وسخريتهم ومواضيع

لسلواهم ومرحهم

وزاد الشيخ غثيث على امثاله من القرويين انه حبي بروح يجعل انداده الطلاب في شوق لا مزيد عليه الى انتهاز الفرص لملاحقته اينما كان ، ولعل هذه الخفة وهذا الحلم وسعة الصدر من الشيخ ، لعله كان وليد الشعور بضعة النسب، وبكونه زنجياً ، وعبداً كان الى وقت قريب مملوكاً لأحد المشايخ ، وان الشعور بالنقص كثيراً ما يحمل الانسان على أن يأتي بالمستحيل من الامور ، سداً لما يشعر به من نقصان ، فرّق الشيخ، غثيث وراق في أعين عارفيه ، وعذب في مختلف الاذواق كما يعذب النسيم العليل والماء القراح البارد في بحبوبة الصيف .

* * *

وجاء شهر شعبان وكثيراً ما تتعطل الدراسة الدينية في هذا الشهر وما يليه زيادة على أيام التعطيل الأخرى ، فأصبح مجال التندر والتفكهة ونشدان التسلية أوسع وأوسع من ذي قبل ، وكان لزملاء الشيخ غثيث وأترابه حصة الاسد من هذه التسلية والافادة من الفراغ بجميع أنواع الافادة من نظم الشعر ،

ومسابقة (التفقيه)، والانتشار على ضفاف الجدول، وما خصوا به من العاب تتعلق بسرعة الخاطر وغير ذلك من اللذات البريئة .

* * *

وذات يوم من أيام هذه العطلة وفى غفلة من الشيخ غثيث صمم الجميع على ان ينسجوا للشيخ غثيث رداء من الهزل جميلاً سيضحكهم ويضحك الشيخ نفسه زمناً طويلاً إذا ما احسنوا نسجه، واتقنوا تفصيله ، وأخرجوه رداء زاهياً رائعاً جذاباً .

وفكروا فى الموضوع وهذبوا الفكرة ودرسوها من جميع اطرافها ، حتى كانت منها رواية تمثيلية اختاروا لهـا ابطالاً منهم وقاموا بتقسيم الادوار حسب ملكات الممثلين الطبيعية واستعدادهم .

* * *

وكان الفصل شتاء ، والجلوس حول الموقد ، وحول أباريق القهوة من ألذ مجالس السمر وادعى إلى ان تكون تلك المجالس رائعة سائغة ،فابتدأ الحديث طبيعياً كالعادة ، ومشى مشية الجد في نقل القصص والحكايات ، وان صنعة الكلام - كما يعلم

الـكثيرون ـ هي من اختصاص هؤلاء الطلاب ، وهم اقدر من غيرهم على خلق المناسبة والدخول في صلب الموضوع ، فكيف وقد اعدوا للأمر عدته ، واتخذوا للرواية اهبتها فكان الحديث يدور حول الزواج ، وروى المتزوج منهم كيف استطاع ان يتزوج دون ان يكون له بعض المطلوب من المهر . وروى آخر كيف جمع له الاصدقاء ما احتاج من نفقات يوم ازمع على الزواج ، فاذا به يخطب ، ويعقد ، ويتزوج في ثلاثة أيام فقط ... ثلاثة أيام لا غيرها ...

وعلق أحد الزملاء على هذه القصة ذاهباً إلى ان الذين تزوجوا على هذا النحو كثيرون وكثيرون جداً ولربما بلغت نسبتهم الخمسين في كل مائة زواج يتم هنا .

وبلباقة منقطعة النظير ادار احدهم الموضوع إلى الشيخ غثيث وقال :

ـ ليس من الانصاف ان نظل طوال العمر هازلين مازحين مع الشيخ غثيث ، متمتعين بخفة روحه دون ان نؤدي بعض الواجب نحوه ...

وأجاب الآخر ـ دعوا الهزل جانباً . لقد كان علينا أن نفكر في أمر زواج الشيخ غثيث قبل أي شيء آخر ، ومع ذلك فلا يزال في الوقت متسع ، ولا يحتاج الأمر الى اكثر من أن يجد الرفاق ليتم زواجه في يوم واحد ، بل وفي بضع ساعات إذا اخلصوا النية .

* * *

وانطلقت أسارير الشيخ غثيث ، وطفح البشر على وجهه حتى اضاع طريق الكلام لشدة الفرح ، ولم يعد يعرف كيف يجب أن يكون التعبير عن الاحاسيس ؟ وما الذي يجب أن يقال من كلمات الشكر ؟ ولم يكن السرور وحده هو الذي أضله الطريق وإنما كان للحياء في مثل هذا المقام شأن كبير في ذبذبة نفسه وعدم تملكه اياها ...

* * *

وفي أقل من أسبوع تظاهر الزملاء بجمع المبالغ اللازمة من المال فأودعوه عند أحدهم ، وقد تعينت المرأة كما تعينت الدار التي سيجري فيها العرس ، وكتب الشيخ غثيث إلى ابويه يخبرهم

بهذه المفاجأة السارة كما كتب إلى بعض معارفه يطلعهم على خبر زواجه ، ويأسف لعدم امكانه دعوتهم لحضور عرسه لما رافق القضية من سرعة عجيبة غريبة لاتفسر بغير المشيئة ، فلولا المشيئة الربانية لما تم كل هذا بمثل هذه السرعة ، وفي مدة أقل من أسبوع، من جمع مال كاف،وتعيين زوجة صالحة طيبة، ومن بيت قيل انه وان كان فقيراً ولكنه بيت عريق كل العراقة في المجد والفضيلة ، ويكفي ان يعرف من يحب ان يعرف ان في سلسلة آباء هذه الزوجة كان عدد غير قليل ممن انفردوا بالزعامة الدينية كما قداخبره جميع اصدقائه واخوانه بدون استثناء ، وهذا وحده بمثابة ضرب من ضروب المعجزة ، واعجوبة من عجائب الدهر ان يتم لمثل الشيخ غثيث الزنجي زواج كهذا الزواج الذي تنعدم فيه الفروق بين اللونين الاسود والابيض بمثل هذه السهولة .

* * *

وعقدت للشيخ غثيث مجالس شعرية ساهم فيها عــدد من الشعراء اللامعين، وقيلت في العروسين قصائد قد لم تقل في كثير من اصحاب المكانة ثم زف الى عروسه بالاهازيج والهلاهل

من لدن اصدقائه الذين اقتصرت عليهم حفلة العرس بعد ان تناولوا العشاء في بيت أحدهم .

* * *

وحين دخل الشيخ غثيث حجلة العروس محفوفاً بهؤلاء الاصدقاء دنا من العروس، ومد يده إلى البرقع فنضاه عن وجهها، فاذا بالعروس تقفز بضع قفزات في الغرفة فيما تشبه رقصات الباليه ..

ويمعن فيها الشيخ غثيث النظر فاذا بالعروس ليست إلا زميله الشيخ ياسين ، ذلك الزميل الذي كثيراً ما يذهب في التمثيل والدعابة والهزل مذهباً يتجاوز حد الافراط ... وقد جمّلوه وزينوه ، وقمصوه ثوب المرأة وهيكلها .. ثم إذا بأصوات الزملاء تدوي بالصلاة على محمد وآل محمد ، ويردد الجميع انشودة الصلاة بالنغمة المألوفة في البلد صارخين :

صلوا على محمد . . . صلوا على محمد

ويلتفت الجمهور المشارك في هذه الرواية التمثيلية فاذا بوجه الشيخ غثيث الاسود ينكشف عن صفرة مزيجة بالسواد تحكي صفيحة من النحاس اللماع . وإذا بالعرق ينزل كالسيل من

جميع مسام وجهه ورأسه . وإذا بتينك العينين اللتين كانتا إلى ما قبل دقائق متقدتين بنور الامل... إذا بهما وقد اغرورقتا بفيض من الدموع ... ثم انفرجت شفتــاه عن تكشيرة تعبر عن ذل، وانكسار، ومسكنة لا يحكيها أي ذل، وانكسار، ومسكنة، لأي مخذول مظلوم !!

* * *

وتقهقر الشيخ غثيث الى الوراء ثم انسحب من الغرفة ... ولم يكد يخرج من حجلة العرس حتى هدأت الاصوات وخيم على الجميع سكون عميق . فلم يدر الممثلون ما الذي يجب ان يعملوا ؟

انهم كانوا قد قدروا كل شيء للرواية، اما (النهاية) فلم يكن فيهم من كان يتوقع أن تكون على هذه الصورة الفاجعة . .

والشيخ غثيث . . .؟

انه لم يعد شيخاً .. فلقد طرح العمامة جانباً منذ تلك الليلة ، ولزم طريق الريف في اليوم الثاني ليستبدل المسحاة بالقلم ، وليعتـاض بصفحة الحقل . وبسطور الحرث عن صفحات الكتاب ، وسطور الكلام ..

لابد من احدى اثنتين

وعلى انهما لم تكونا غير فتاتين قرويتين ، فقد احسن ابوهما تقويمهما ، وأخرجهما اخراجاً ملحوظاً فى حياة القرية ، فكانتا تحسنان حلب البقر والشاء ، وتتقنان الاحتطاب وجمع السرجين، وتجيدان نسج الحصر من خوص النخيل ، وكل شيء آخر مما ينبغي ان تلم به القروية لتكون بنت بيت كما يقولون .

لذلك عز على الأب ان يزفهما لأي خطيب قادم ، وقال انه لن يزوجهما إلا ممن يطمئن من كفايته ، ويرتاح من ملكاته ، ويتيقن من توفيقه فى حياته، لكي تسعد ابنتاه في كنف الزوجية ولا يعود هو يفكر في مصير احداهما ، ولا يسأل بعد ذلك أشراً تلاقى ، أم نكداً تصيب ، أقلقاً تساور ، أم غصة تعاني ؟ والسعادة عند القروي زاد كاف ، ومأوى واق ، وقهوة وافرة ، وتبغ كثير ، ومن قبل قال قائلهم :

(ما دام كهوة وتتن كل الامور تهون)

أي مادام التبغ والقهوة متوفرين فليس ثمة ما يستحق السؤال عنه بعد .

وجاء من يخطب احدى الفتاتين فتى من قرية نائية ، تبشر السحنة ، والعضلات ، والحركات منه بقابلية لا بأس بها على مجابهة الحياة وكسب التوفيق ، ويدل ثوبه (الزويني) وماعمل الخيـــــاط في ردنيه ، وكميه ، وجيوبه ، من تخطيط ، وتخريج وتخريم بالحرير ، على انه مورد كل اطمينان من حيث نجاحه ، وزاد ذلك الاطمينان ما كان يحمل الرجل معه من كيس هو الآخر قد أخرجه الخياط آية في الفن من حيث التطريز والتخطيط ، وقد ملىء بالتبغ .

وسأل الأب الخاطب لقد سألته :

ـ وماذا أنت تعمل ؟

قال ـ اني اصنع التنانير من الطين ، فأضع في كل سنة نحو ثلاثمائة تنور واكثر ، وان حاصل هذا المبيع السنوي يمهد لي عيشاً رضياً كافياً طوال السنة .

وسر الاب بهذه الخطبة ، ووافق على زواج ابنته ، وزفت البنت الى الرجل وسار بها الى قريته .

وقال الأب لزوجته :

ـ انها نعمت الصفقة ، فصهرنا هذا جدير بأن يجعل بالنا في راحة تامة من رزقه ، ذلك لأن الطين وافر ، والعضلات من الرجل مفتولة ، والقابلية على العمل تكاد تتدفق منه تدفقاً ، هذا بالاضافة الى قابلية ابنتنا التي ستشد أزره ، وستجعل حاصل التنانير عنده مضاعفاً . ولم يبق لنا ـ قال الزوج ـ إلا أن ندعو الله بأن يجيء لنا صهراً ثانياً على هذه الشاكلة ، يريح بالنا هو الآخر ، فلا نعود نفكر في مستقبل هاتين البنتين : ما الذي تأكلان ؟ وما الذي تلبسان ؟ وماذا تعملان ؟ وكيف تعيشان ؟

وانت تدرين ان الشيخوخة بدت تدب بنا دباً ، وليس لنا ما يمكن ان نستعين به على بقية دنيانا فضلاً عما يمكن ان نخلفه لهاتين البنتين لو كنا قد زوجناهما بمن هو دون الكفاية .

قالت - وليس ذلك على الله ببعيد .

ولم يمر بعض زمن حتى وافى القرية فتى ينم كل عضو من اعضائه عن قابلية تسترعي الانظار ، وكانت قدماه الحافيتان هما الأخريان دليل الرجولة،والكد ،والفعالية، لما كان يبدو عليهما مما يلي الساق من صلابة وتشقق ، وكان يرتدي هو الآخر ثوباً من (الزويني) الذى اعمل فيه الخياط فنه فأخرج منه ثوباً تبين فيه كل مفاصل الجسد والعضلات - من العضدين والوركين ، والصدر والكشح - لكل عين فتري من الرجل رجلاً رياضياً حلو التقاطيع ، متين البنيان ، يستطيع ان يعمل - إذا عمل - بقدرة قد تكون مرموقة .

وما كاد يجلس حتى فتح الكلام بينما راحت يداه تعملان في فتح كيس التبغ وملء سيكارته وقال : لقد قال انه سمع بابنة هذا الرجل، وكونها فتاة نشطة ، قوية ، وبنت بيت ، وسمع ان اباها لا يريد ان يزوجها إلا ممن تتوسم فيه القدرة على العمل بحيث يغني أباها عن التفكير في أمرها والاهتمام بشأنها وإذابة قلبه حسرة عليها ، وهو فلاح من الله عليه بالقوة والجلد

في حراثة الارض، وتقليب الصخور، حتى جعل من سفح الجبل مساحة لا بأس بها للزرع بحيث يضمن حاصلها له عيشاً كافياً، وراحة نسبية ، ويرجو حين يتسنى له ان يبني بزوجته ، ان يزداد نشاطاً بمعونتها فتزداد المساحة التي يمكن استغلالها ، خصوصاً وان المطر غزير ، ولن يكلفه الأمر اكثر من اعداد الارض الصالحة .

واعجب الأب بالخطيب الجديد وبمظهره وايمـــانه بنفسه ووافق على الزواج،وزفت الفتاة الى زوجها، وسافر بها الى قريته .

وقال الأب لزوجته -

- لقد اتم الله نعمته علينا ... فهذا هو صهرنا الآخر يتمتع بقابلية تضمن لنا راحة البـــال ، وتوفر علينا التفـكير في أمر ابنتنا هذه من حيث راحتها ومعيشتها ، ذلك لأن أرض الله واسعة ، والأمطار كثيرة ، والنشاط حاصل عند الزوجين لامحالة ، ولقد احسنت - قال الاب - حين حرصت على الفتاتين فلم ازوجها إلا بعد تيقن واطمئنان والآن والآن لننعم بالاطمئنان من أمر ابنتينا ، فليس هنالك ما يكدر عيشنا ، وينغص علينا بقية حياتنا الباقية .

ومرت أيام وتلتها أيام ، وشعرت الام بعاطفة الامومة تغلي في صدرها ، فلم تجد لها قراراً إلا ان تسافر لزيارة ابنتيها فسافرت ـ

واقبلت على بيت صهرها الفلاح ، فاذا بالبيت يضحك ، وإذا بالبنت وزوجها يستقبلان الام بالبشر والترحاب... وتسأل الام ابنتها ـ

ـ وكيف حالكم يا بنيتي ؟ وما الذي عملتم ؟

قالت ـ بخير ... يا أماه ـ فقد تضاعف نشاطنا في هـذا الموسم وتم لنا ان نحرث قطعة اكبر مما كان يتيسر لزوجي حرثها من قبل بسبب مساعدتي له ، ولم يبق لنا إلا انتظـار عناية الله ... وعناية الله هذه هي ان يجود علينا بالمطر الغزير لينمو الزرع وليأتي بعد ذلك اكله . . .

وحين قضت الأم بعض الأيام في زيارة ابنتها هذه توجهت منها إلى زيارة ابنتها الثانية ، واقبلت على بيت صهرها صانع التنانير فاذا بالوجوه فرحة ، مستبشرة بقدمها ، وإذا بالصدور متفتحة لاستقبالها ، وإذا برنين القبلات يملأ الاجواء ...

وسألت الأم ابنتها -

وكيف انتم يا بنيتي والدنيا ..؟ وماذا انتم عاملون ؟

قالت - لله الحمد يا امي . . . فقـد زاد منتوجنا في هذا الموسم ، وقد استطاع زوجي ان يعمل من التنانير اكثر مما كان يعمل في كل سنة بفضل انضمامي اليه ، ونحن اليوم لا ننتظر إلا عناية الله . . . وعناية الله يا أمي هي أن يمنع عنا المطر لتسلم التنانير ، ويأتي رزقنا كما نحن نتوقع ...

* * *

وعادت الام من هذه الزيارة الى قريتها ... واستقبلها الأب سائلاً :

- كيف حال ابنتيك ؟ وكيف خلفتها هناك ؟

قالت - اسكت ... لقد فاتك ان تحسب للاقدار حسابها يوم اقدمت على تزويج ابنتيك ... وفاتك ان تتذكر المثل المعروف :-

(مصائب قوم عند قوم فوائد)

وفاتك ان تدرك ان الانسان لا يستطيع ان يقدر من
الامور الا ظواهرها ، وإلا ما يبدو لعينيه منها .

- قال ولكن ما الخبر . . ؟

قالت : اسمع يا هذا ... لا بد من احدى اثنتين . . فاما ان
تمطر السماء أو لا تمطر . . ولك ان تقدر بعد ذلك ما يكون .

اصابع الكف

ـ هل سبق لي ان كذبت عليك مرة ؟

ـ استغفر الله ... ولكن من يدريني أن لا تكون كاذباً في مثل هذه الحالة .

قال : ـ اسمعيني يا سميرة ... لقد اقسمت لك من قبل كثيراً وها أنذا اقسم لك ثانية ، وأرجو ان لا تحوجيني للقسم مرة أخرى .. انني اقسم لك بأني لن اجمع بين زوجتين ولن ادخل عليك ضرة ، ولا اغالي إذا قلت لك انني لن أفعل هذا في حياتك فحسب، وإنما سأتجنب الزواج بأية امرأة بلغ ما بلغ شأنها حتى بعد مماتك إذا كتب عليك ان تموتي قبلي ـ لا سمح الله ـ وكتب علي ان اعيش بعدك والعياذ بالله ...

كان هذا مضمون حديث السيد ابراهيم في كل مرة يرى فيها الشك يعالج ابواب قلبها لينفذ الى اعماقه ، ولم يكن السيد

ابراهيم يعرف أولا السبب الذي يهيج سميرة ، ولا العلة التي تدعها تستسلم للشكوك في أمره ، وعدم الاطمئنان من اقتصاره عليها زوجة منفردة به ، ولكنه أدرك ان هذا الشك لا يأتي سميرة إلا في أوقات مخصوصة وحالات معينة ، كأن يجيء حديث احدى الآنسات أو السيدات من الأرحام والمعارف بالمناسبة ، فيطري ابراهيم جمالها ، أو يعدد مزاياها ، أو يفردها بخصلة من الخصال الجذابة ، فيبدو على سميرة شيء من الانزعاج لا يلبث أن يتسع ثم يتحول الى حديث كثيراً ما تقحم سميرة موضوعه اقحاماً لتقول له :

- ان جميع الرجال غير مؤتمنين ، وان الخلط والجمع بين عدد من الأزواج يجب اعتباره من الأمور الطبيعية عند الرجال جميعاً وبدون استثناء لو أتيح لهم ذلك .

وكثيراً ما رد عليها الزوج هذا القول بالشواهد الكثيرة التي تثبت لها ان الطبيعة تأبى مثل هذا التلوين الذي يجمع بين ضرتين وأكثر ، حتى أنها تأبى ذلك عند الحيوان . ولقد ضرب لها مثلاً بالحمام والعصافير وغيرها من الحيوانات ، ثم ذكرها

بأن أباه عاش مع زوجته ستاً وأربعين سنة حتى مات ولم يدخل عليها ضرة ، ولم يفكر بامرأة غيرها ، وان جده لأمه بقي في قيد الحياة اكثر من خمس وعشرين سنة بعد وفاة زوجته ، فلم تحدثه نفسه بأن يتزوج . . . فما بال هـذه الأوهام تدنو يوماً بعد يوم من ذهنها ، حتى لتكاد تكون عقيدة راسخة ، لا يزعزعها المنطق ولا الدليل . . !

ولقد كانت حجتها قوية هي الأخرى ، يوم ردت عليه : بأن الطبيعة لم تأب - كما قال - لم تأب الجمع بين الضرائر حتى عند الحيوان ، وقد ضربت له مثلا بالخيـــل والغنم والدجاج . وذكرت له كيف أن الديك يجمع بين الف ضرة وضرة ، وان جده لابيه قد جمع بين ثلاث زوجات ، وان أحد عمومته كان قد تزوج باثنتين قبل اكثر من ثلاثين سنة . وان .. وان ..

ورأى السيد ابراهيم أن يتجنب على قدر الاستطاعة بعد ذلك كل تعليق على اسم آنسة أو سيدة ، وان لا يسمع امرأة مديحاً ، سواء عن استحقاق وبداعي التحليل والاستشهاد أم عن غير استحقاق وبداعي المجاملة والاتيكيت .

* * *

ويبدو انه لم يفلح في هذا النهج الجديد كما كان ينتظر ، إذ ان مثل هذا التجنب والتوقي ، كان من الامور غير الطبيعية التي قد تستلفت النظر اكثر من حالته وهو يعلق ويشي ويطري الجمال.

وسميرة امرأة ذكية ، واذا لم يكن ذكاؤها من النوع النادر ، فهو ذكاء واضح كل الوضوح . وقد أخذت على زوجها مثل هـذا الانقلاب ، وفسرته كما يقتضي أن يفسره متوسطو الذكاء.

لقد وجدت فيه نوعاً من محاولة للتخلص من مناقشتها ، وفسرته كضرب من ضروب التستر على دخيلة نفسه من أن تنكشف . وعلى هواه وميوله من أن تبين ، فاشتدت في مؤاخذته ، واشتد هو في التمسك بالحيطة دفعاً لشكوكها .

وليس لسميرة من دليل غير عقيدتها المستمدة من الخيال ، فهي تعتقد ان الرجال غير مؤتمنين على الاخلاص لزوجاتهم ، وانهم كثيراً ما يظهرون غير ما يبطنون ، وهو يعتقد ان مثل هذه الصفات انما خصت بها المرأة ، وان الخداع والحيل والمكر وما شابه ، لم يرد عنه ما ورد في بطون الكتب ، إلا وهو

منسوب للمرأة . وان هناك عدداً غير قليل ممن جمع وألف طائفة من حيل النساء في كتب طريفة ، ولم يجمع واحد - استغفر الله - بل لم تجمع امرأة للآن شيئاً أو بعض شيء عن الرجل وحيله . . .

*

كل هذا كان يجري ، أو بعضه ، أو أشد منه ، في مناسبات قد تحدث في كل يومين أو ثلاثة ، أو في كل شهر أو شهرين فتنغص من الزوجين عيشهما بعض الحين ، ويعمد ابراهيم الى الايمان الغليظة والى ما أوتي من منطق ليؤكد لزوجته ان ما يخامرها من أمره ليس إلا الغيرة أو هو الشك العالق بطبيعة النساء ، ولابراهيم علاقة نخيل فى (ابو الخصيب) تقتضيه فى كل سنة أن يغيب شهرين واكثر لبيع تموره ، ثم ان له علاقة رحمية باحدى القرى الجنوبيــة من لبنان ، لأن أمه لبنانية ، ولأن بقية من أخواله وخالاته ، تستدعيه صلة الرحم أن يزورهم فى صيف كل سنة أو في كل سنتين أو ثلاثة على الأقل لتفقد أحوالهم ، وهو حين يفعل ذلك ، وحين يغيب

عن زوجته بسبب تخيله ، أو بداعي صلة الارحام ، انه حين يفعل ذلك لا ينسى أبداً أن يجلس كل يومين او ثلاثة ليكتب لسميرة من هناك ، وليؤكد لها مرة ، وثانية ، وثالثة ، اخلاصه لها ، وايثاره اياها ، مردداً المثل العامي الذي أصبح قاعـــدة من قواعد الحياة وهو : (أن ليس كل أصابع يديك سواء في الطول وفي الحركة) ، وهب أن هنالك من الرجال من يخاتل ويخادع ويقسم قلبه بين عدد من النساء ، ولكن ليس ذلك طبيعياً ، وليس كل الرجال سواء في ذلك .

* * *

وابراهيم يحب سميرة حباً يتجاوز كل حد معروف ، وقد تزوج بها عن حب ، وعرف الجميع مبلغ حبه هذا ، عرفوه من انصياعه لها ، ونزوله عند رغباتها ، وانه ليزيده حبهـــا اياه ، وتفانيها فيه ، حباً على حب ، لذلك فهو كثير الاهتمام بها يوليها من الرعاية والعناية وملاحظة العواطف الشيء الذي حمل الاهل والقريبين من سميرة - والمطلعين على جانب من غيرتها وشكوكها - حملهم على ملامتها ، بل حملهم على تعنيفها بشيء من السخرية

والزراية بعقلها وعقيدتها المستكينة للاوهام، الداعيـــة الى التشكيك في قلب زوجها .

* * *

وحان الوقت الذي تتبدد فيـــه الشكوك نهائياً ، وتتبخر الاوهام من ذهن سميرة ، بل حان الوقت الذي تندم فيه سميرة وحيث لا ينفع الندم . فليس هنالك وهم بعد ، وليس هنالك شك طارق أم راسخ ، وليست هنالك بعـــد غيرة طارئة أم مستوطنة ، فلقد وقع ما لم يكـن بالحسبان ، وجاء الخبر بأن ابراهيم قد لفظ أنفاسه الأخيرة بمستشفى البصرة ، على أثر حادث اصطدام سيارة في طريق (أبي الخصيب) . . .

* * *

والمصيبة الكبرى عنـــد سميرة ليست في الفراق الأبدي الذي منيت به وحده ، ولا في هذه الصدمة التي امحى على اثرها اسم ابراهيم من سجل الوجود على تلك الصورة الفاجعة التي لم تتح لها حتى النظر اليه في آخر ساعاته ، ولم يتسن لها أن تودعه الوداع الاخير ، وهو أعز ما تملك من دنياها ومن

حياتها العامة والخاصة .

* * *

ان مصيبتها الكبرى لم تكن في كل هذا وحده ، وفى يتاماه الذين تركهم خلفة وهم صغار بعد ، بل المصيبة كل المصيبة عند سميرة كانت فى يقظة الضمير ، وفى انتباهها لنفسها انتباهة عنيفة غاية فى العنف ، فلقد أحست في تلك الساعة الرهيبة بما يشبه الثورة من التأنيب على سلوكها نحو زوجها طوال السنوات ، وتصورت كيف نغصت عيش الزوج المسكين طوال الايام ، متهمة أياه كرجل بالعواطف الجياشة التي كثيراً ما تسوق الرجال الى الجمع بين زوجتين واكثر ؛ وكل دليلها هو أن بعض الرجال يعملون ذلك ، فيجب أن يكون كل الرجال كذلك . ضاربة بالحكمة القائلة : (ليس كل أصابع اليد سواء في الطول وفى الحركة) عرض الحائط ، فبكت سميرة بداعي تأنيب الضمير اكثر مما بكت بداعي ضياع الزوج العزيز ، والحزن اذا ازدوج ، عسر التغلب عليه ، وصعب التخفيف من حدته ، فناحت سميرة ما استطاعت أن تنوح ،

وبكت ما قدرت أن تبكي ، وهاجت ما أمكن ان تهيج ، فقد كانت تشعرا نهـــا كانت قاسية ، وانها كانت ظالمة ، وانها كانت مجرمـــة حين نسبت صفة المكر الخاصة بالنساء الى الرجال . والى زوجها الأمين البرىء بالذات .

* * *

وكثيراً ما ترق الطبيعة كما تقسو ، فحان الحين الذي تشفى سميرة من تبكيت الضمير ، وجاء الوقت الذي ينفرد الحزن المزدوج فيقتصر الحـــداد على الفقيد وحده ، ولم تبق سميرة تسح الدمع بسبب موقفها من زوجها ، وقسوتها عليه في حياته ، وظلمها له باتهامـــه ، إذ لم يكد يحين يوم الاربعين على وفاة ابراهيم حتى كانت تشارك سميرة في نحيبها وبكائها ضرتان ما كان يعرف أحد عنهما شيئاً من قبل ، احداهما ابنة احـــدى القرى وقد تزوجها ابراهيم في (أبي الخصيب) ، والأخرى ابنة أحد اخواله ، وقد تزوجها في احدى قرى لبنان الجنوبية وقد تزوج بهما المرحوم دون ان تدرى احداهما بالاخرى ، أو دون أن تدري سميرة بهما على الأقل .

* * *

ولقد حان ان يماط اللثـام عن الحقيقة الآن لتعرف كل
واحدة فى الاخرى ضرتهـا المجهولة الخفية وليعرف الـكل ان
أصابع الـكف واحدة في الطول رضي الوجدان أم لم يرض ؟

الكلام الآيل الى البطيخ

لقد رآها لأول مرة في بيت صديق ، وما كادت تلتقي العينان حتى أحس بما يشبه الذبذبة الكهربائية تنتقل الى جميع أطرافه ، ثم تجول في أطراف ذهنه لتستقر بعد ذلك في قلبه، فاذا بهذا القلب يتفتح فتدخله الفتاة وتقر فيه ، وعلم فيما علم ان اسمها (دنيا) ، ولم يلبث غير دقائق حتى ايقن بأن الذي سماها (دنيا) كان يعرف لها كل مزايا الدنيا الرائعة ، فهي بحق (دنياه) وحده اذا لم تكن دنيا الجميع،وها هو ذا يعثر عليها ، وبضاعة الشاعر هي الشعر والحديث ، لذلك احسن اداء المهمة فيما ساق من شعر وحديث ، ونكت ونوادر ، حتى هز المجلس وهز (الدنيا) بطرائفه الادبية هزات متوالية ، وشعر من النظرات المتبادلة انه قد وقع منها الموقع الذي يريد ، وانتهت الزيارة في تلك الليلة بالتعرف والسلام ، ولقد قيل في الامثال

العامية (ان السلام يجر الى الـكلام ، والـكلام الى البطيخ) وهاهو ذا بدأ السلام ، وظل على السلام ان يجره الى الـكلام وليتم بعد ذلك اكل البطيخ ، وهو (الزواج) .

وعاد الى البيت، وحاول ان ينام فلم يستطع ، وطال سهاده وعلى رغم طول السهاد ، فقد كان يحس بنشاط منقطع النظير ، وبنشوة دونها نشوة نجاحه في الـكثير من المباريات الادبية التي دخلها وكان له فيها القدح المعلى .

ولقد سبق له أن عالج مهـــام العشاق ، وصور خلجات العشق ، وسورات الحب ، وسكرات الهيام ، لا بل سبق له أن جرب الحب بنفسه غير مرة ، ولـكنه الآن أمام شيء ليس له بما عالج وجرب ، وتصور وكتب ، أي وشيج من الصلة .

وفي النهار انصرف الى عمله ، واحس بأنه يعمل في جو مشبع بالرغبة والسرور والانتعاش ، وكلما ذكر مجلس الليلة البارحة وذكر (دنيا) ، استمد من هذه الذكرى روحاً جديدة تدفع به الى اتقان عمله دفعاً لم يكن له عهد به من قبل ، ولكن كيف يتم له ان ينقل (السلام) الى مرحلة (الـكلام) ؟ وكيف

يتيسر له الاتصال بهذه الآنسة ؟

وفكر طويلا ، ثم رأى أن يطلبها بالتلفون ليسألها عما اذا كانت قد رأت نظارته التي افتقدهـا ليلة أمس في بيت الصديق ، على أن يسبق ذلك اتصاله ببيت الصديق والسؤال منهم عن هذه الفقيدة المفتعلة . . . ولكنه سرعان ما انكر على نفسه مثل هذا التحرش ، ورأى ان مثله لا ينبغي أن يلجأ الى مثل هذه الوسائل ، فهي من الوسائل النابية التي قد تحمل (الدنيا) على احتقاره إن انكشف لها امرها ، وفكر في غير هذا كثيراً ، فلقد كان المثل العامي المذكور عنده حقيقة علمية ، وان عليه الآن ان يعقب (السلام) بالكلام ، لينتهي الامر بالبطيخ ، وهو عنده أقرب من طريق الفلسفة ، وطريق الادب الذي قال فيه شوقي :

نظرة فابتسامة فسلام فكلام فموعد فلقاء

انه سلام ، فكلام ، فبطيخ .

وعجز عن الوصول الى أية طريقة توصله لهـذا البطيخ ، ليتم له الظفر بالدنيا والزواج بها ، فصمم مكرهاً على أن يدع

بقلبه نهباً للهموم والاحزان ، وان يتحمل ما يتحمل من هـذا الحب الطارىء المفاجىء حتى يتغلب عليه .

ألم يسبق له أن عالج احدى القصـائد فادى نبو احدى القوافي الى ترك القصيدة دون أن يتمها ؟

ألم يسبق له ان جلس الى مكتبه والشوق الى الـكتابة كان يتملك كل جوارحه ولـكنه ما كاد يضع بعض الحروف على الورق حتى اسلمه تداعي الافـكار الى امور صرفته بالمرة عن تحقيق رغبته ، فاذا به يرمي القلم بعيداً ويقوم ؟

فلتـكن (الدنيا) تلك القصيدة التي لم تتم ، وتلك المقـالة التي لم تـكتب .

وعلى ان من ابرز صفات الشعراء جموح العاطفة ، وشبوب نيرانها في القلب ، فان شاعرنا كان اقوى ما يكون على تكفين عواطفه في مائة ازار والف بطانة حتى لا يكاد يبين منها شيء وهي في أشد حالات هياجها . .

واوحى لنفسه بأن لـكل شيء حداً ، وان لـكل شخص حقاً ، وليس من حدوده ، ولا من حقوقه ، أن يبادىء هو

الفتاة ، وان يخلق هو المناسبات ليهيء لها ان تضع اذنيها على صدره لـكي تسمع وجيب قلبه ،و نبضات حبه ، وهتافه باسمها إذ قد تـكون فتاته بعيدة عنه كـل البعد ، وانه لمن الجناية ان يحملها على حبه حملا ، من حيث تريد أو لاتريد ، وانما يجب أن يكون كمئات العشاق والمحبين الذين عاشوا سنين طوالا ولم يعرف معشوقوهم ولا محبوبوهم ولا غيرهم عنهم شيئاً حتى جاء الموت فلفهم بردائه . ولو لم تـكن هنالك بعض البوارق ، أو بعض النقط قـــد وضعت على بعض الحروف ، ولو لم تكن هنالك بداية قصة فتحتها المصادفات لما عرف أحد ان ناساً قد أحبوا وماتوا ثم دفنوا تفاصيل حبهم معهم في المقبرة . . .

* * *

ودق جرس التلفون في مكتبه ، وحين رفع السماعة الفى المتـكلم سيدة ، لصوتها عذوبة تفوق عذوبة ما قد سمع من الاصوات الرخيمة من قبل ، ومع ذلك فقد ظنها احـــدى الصديقات أو القريبات ، فقال :

- اهلا بالسيدة زكية . .

فضحكت ضحكة طويلة وقالت :

- من هي السيدة زكية ..؟

قال - عفواً يا آنسة شماع ، فقد ضاعت علي الاصوات ...

قالت - يبدو انك كعمر ابن ابي ربيعة ، فمن هذه الآنسة شماع ؟

وفي موجة حلوة من الضحك الرتيب المتزن قالت :

- اسمع . . انا دنيا ، لا زكية ، ولا شماع .

يالله . . انه لا يكاد يسمع باسمها ، حتى ينتفض كل وجوده كما لو كان قد مسه سلك من الكهرباء على حين غفلة .

انه شاعر ، وقد نظم الشيء الكثير ، وكتب الشيء الكثير عن مثل هذه الخلجات وفي مثل هذه الانتفاضات ، ولكنه لا يرى احسن تعبيراً من الشعر العامي حين يقول - وهو يخاطب نفسه المشحونة بالحب ، والمفعمة بالهيام المكتوم - :

(هم اتي مثل العين ما اقدر لج انهاج

شو گلج اتگومين من يقبل اهواج)

اي هل انت ايتها النفس كالعين التي لا اطيق ان احول بينها

وبين النظر ؟ فأنت كما أدري نفس ، ومرد النفس الى صاحبها ، فما معنى هـــذه الانتفاضة حين يمر اسم صاحبك عليك ؟ وحينما يخطر ببالك كأنني غير مالك لزمامك ؟

وقال ـ أهلاً وسهلاً بالدنيا ، فالذين لا يعرفون الدنيا انما هم الاغبياء . . .

فضحكت وقالت :

ـ حوشيت يا سيدي . . . ويبدو لي انك شغوف بالدنيا ، هائم بها ؟ . .

قال ـ ولم لا يا سيدتي ؟ هل ترين أحلى للعين أن تتفتح فى غير الدنيا ؟ وهل شيء أوقع من اسم الدنيا في المسامع ؟

قالت ـ لقد حببت لي اسم (الدنيا) وقد والله كنت فى سأم ما بعده سأم منه ، وكنت أود لو كان اسمي (الآخرة) على ما يحوى هذا الاسم من معاني الموت والخوف والرهبـــة لـكان أحب الي وأشهى من الدنيا . .

أما اليوم . . . وبعد أن سمعت من فمك وصف الدنيا على ما فيه من ايجازفقد بدأت احس بحلاوة هذا الاسم وعذوبته،

ولربما غفرت بل شكرت لابوي انتقاء هذا الاسم لي حين قالا يجب أن يكون اسمها (دنيا) .

قال ـ واحمد الله أن اكون من الخير بحيث استطيع ان احول شيئاً من صورة كريهة الى صورة حبيبة في ذهن اديبة نبيهة مثلك .

قالت ـ وقد بدت على صوتها لهجة احتجاج أو عدم رضا
قالت ـ لم ؟ لم كل هذا الانكسار والهبوط بنفسك الى التظاهر بالعجز ؟ انني لا أرضى لك ان تمدحني من طريق ذم نفسك... انك تستطيع أن تغير صوراً كثيرة في اذهان عدد كبير من الناس فلا تقل لي شيئاً من هذا القبيل بعد .

قال ـ امرك يا سيدتي .

قالت ـ طيب . . . وغرقت في لجج من تلك الضحكات التي تنفتح لها نفسه ، وتمنى على الله ان يخلقه سمكة تسبح في امواجها ، أو طيراً يرفرف في آفاقها ، ثم قالت :ـ لقد أردت ان اسألك عن موطن بيت الشعر الذي قلت أمس ان الشاعر الياس فرحات قد قاله ليلة ما قبل زواجه وهو :

يا ليل أنت الحد ما بين العزوبـــة والزواج

قد كنت ابصر ماغدي ؟ لو تستحيل الى زجاج

قال - انه من قصيدة طويلة سأبحث عنها في مظانهـــا وسآتيك بها الى بيتك ، إذا لم يكن في ذلك بأس

قالت - : أبداً . . . بل انك ستشرفنا .

* * *

ومضت سنة وبضعة شهور

وقالت (دنيا)... قالت :- بعد اسبوع سيحل أول يوم على مرور سنة من زواجنا ، فهل أنت مستعد لتطلع علينا بقصيدة تعبر فيها عن شعورك بهذا اليوم ؟

قال - لنر . .

وفي اليـــوم المعين أماط شاعرنا الغشاء عن لوحة فنيـــة اعدت خصيصاً لهـذا اليوم فاذا بها صورة رمزية فنية جميلة ، بريشة الرسام المتفنن يحي جواد وقد عنونت بهذه الكلمة :

(السلام يجر الى الكلام ، والكلام الى البطيخ)

وقدمها الزوج الشاعر الى زوجته الشاعرة قائلا : انهـــا

احسن من الف قصيدة ، فما كل سلام يجر الى كلام ، وما كل كلام يجر الى البطيخ ، فضحكت ... وغرق صاحبنا في تلك اللجة من الهناء التي كان يتمنى أن يغرق فيها قبل سنة وبضعة شهور .؟

الحلقة المفقودة

ـ من هؤلاء الذين ملأوا غرفـة الاستقبال صياحاً يا أبا نعيمة ؟ وما هو معنى طلب المرطبات لهم والوقت شتاء قارس ؟

قال ـ انهم جاءوا يخطبون ابنتك نعيمة .

قالت ـ وقد ارتسم الذهول على محياها ـ: وماذا قلت لهم ؟ قل لي ماذا قلت لهم ؟ .

قال ـ قلت الذي يجب أن يقال في هـذا المقام . . لقد قلت لهم انكم قد قدمتم أهلا ووطأتم سهلا . . ثم سقيتهم (الشربة) علامة الرضا والقبول ؟

قالت ـ والبنت ؟ ألم يكن من الجدير أن يؤخذ رأيها ؟ أتعطي ابنتك قبل أن تأخذ رأيها ؟ .

قال ـ ومن قال لك انهذا من حق البنت ؟ أنا لا اوافق ، لا أوافق أبداً ان تدخل البنت المقاهي لتختار زوجها من بين

جلاسها فهل فهمت ؟

قالت ـ ومن قال لك اني اريد ان تدخل البنت المقاهي لتختار زوجها من بين روادها ؟ ولكني اقول ان زواجاً كهذا لا ينبغي أن يتم بدون اخذ رأي البنت ، فكيف رضيت ان تجيب طلب الخاطبين وهم يدخلون بيتك لأول مرة ، وبدون اية مشورة مع ارحامك ، وأهل بيتك ؟ .

قال ـ اسمعي يا ام نعيمـــة ، اني لا اريد ان اكون سبة للناس فأرد الذين يدخلون بيتي ملتمسين ، وانت تعلمين كم في ذلك من العار الذي لا يطيقه امثالي ، وها انت ذي ترين من الذي استطاع ان يطرد زائريه ومرتجيه ، حتى ولو كان الرجاء تناول ما يملك المرء وزيادة . ولـكني اعرف ماذا تريد ابنتك نعيمـــة ؟

انك تسعين منذ زمن بعيد لتزوجي ابنتي من ابن عمها ، وقد قلت لك قبل هذا اني لا انزل على رغبتك ورغبة ابنتك، وان الأم والبنت ليس من حقها التفكير في مثل هذا الأمر، وللمرة الأخيرة اقول لك اليوم اني قد اعطيت ابنتي ، ولا بد

من تنفيذ ذلك ، رضيت ورضيت نعيمة ، أو لم ترضي ولم ترض نعيمة .

فأشاحت المرأة بوجهها ، وقد حارت في عينيها دمعتان ما لبثتا ان انحدرتا ، فمشت الى ركن من غرفة النوم وراحت تسبح في جو من التأملات والأفكار .

لقد ذكرت قصتها ، يوم تقـــدم اليها زوجها خاطباً ، واستعرضت ماضيها بكامله ، فرأت ان التاريخ يعيد نفسه اليوم ليمثل دوره مع ابنتها نعيمة ، فقد خطبت هي - أي الأم - بدون أن يؤخذ رأيها . وقد أعطاها ابوها دون أن يستشير ويستخير ، وكما كان هو أن ولج بيته جمع من الناس ، فيهم الوجيه والكبير ، فقالوا وقال ، وتكلموا وسمع ، وطلبـــوا وأجاب ، ولم ينهضوا حتى شربوا (الشربة) كما شربه القـوم اليوم في خطبة ابنتها نعيمة ، وهي أي أم نعيمة ، لم تعرف عن خاطبها شيئاً يوم طلب يدها ، بل ولم تسمع به ، ولقد كان بنفسها لو خلي الامر لها ، أو لو خلي لأمها على الاقل . لقد كان بنفسها أن تتزوج شخصاً رأت وجهه من قريب أو بعيد

على الأقل ، ولكن هكذا قضت به التقاليد . وهكذا أراد العرف ، أن تخطب ، وان يعقد عليها ، وان تزف : بدون استشارة ، حتى اذا قابلت ابا نعيمة لأول مرة ، كانت كمن يقابل عزرائيل ، فقد كان ابو نعيمة من الدمامة ، وقصر القامة ، ما ينفر حتى الأم من النظر الى وجه ابنها ! !

وبكت أم نعيمة ليالي وانهرا ، وانكمشت على نفسها اياماً طوالاً ، واكتفأت في احدى زوايا حجلة العرس ، لا يكاد ينزل الماء الذي تشرب من فمها حتى يستحيل دموعاً في عينيها . وآمنت ... لقد آمنت بأن الذي تفتقده انما هو الحلقة التي تربط بينها وبين هذا الزوج لتؤلف منها سلسلة واحدة ، ومن أين لها هذه الحلقة وقد تزوجت مكرهة مرغمة .

وجالت في نفسها مختلف الافكار ، ولم تحسب أن اليأس كثيراً ما يكون هو الحلقة المفقودة ، حتى وجدت نفسها تستكين ، وتستسلم ، وتنقاد ، وليس هنالك من عمل على كل هذا غير اليأس من وجود الحلول المعقولة لواحدة مثلها ، وان واحدة مثلها ليس من اليسير عليها الرجوع الى بيت ابيها ، ولا اخذ الطلاق

من زوجها فاستكانت واستسلمت وانقادت لزوجها الذي كرهته اول مرة انقياد المخلصين المتفانين في اخلاصهم .

لقد استعرضت أم نعيمة كل هذا ، ثم ذكرت عدداً غير قليل من النسوة اللاتي تزوجن على هذه الشاكلة ، نزولا على مقتضيات التقاليد ، فوجدت ان البعض ، البعض من الزوجات اللاتي كانت تفرض عليهن التقاليد أن يستسلمن ، وان يخضعن لأزواجهن ، قد يجدن أخيراً فيما ينفق عليهن الزوج ، أو فيما يعاملهن به ، او فيما يسد لهن بعض الرغبة والحاجة ، قد يجدن في ذلك (جامعة) تجمع بينهن وبين ازواجهن ، فتحول تلك الكراهية الى اغضاء ، ثم الى رضا ، ثم الى مودة ، واحيانا الى حب .

لقد استعرضت أم نعيمة كل هذا ، ثم هونت على نفسها إذ من يدريها ... فلعل صهرها ليس من القبح كما كان زوجها أبو نعيمة ، ولعل ابنتها ستجد الحلقة المفقودة بسهولة فتؤلف السلسلة الزوجية بالشكل الذي تألفت بها ملايين السلاسل .

وجاء دور نعيمة ، لقد علمت نعيمة بالخبر ، وعلمت ان أباها قد وهبها كما يهب المرء الحاجة التافهة وبدون قيد أو شرط . لقد

زوّجها من رجل لم يشجعها ماسمعت عنه من اخبارعلى الزواج به . ولكن ماذا تستطيع ان تفعل بنت كهذه ، وفي مثل هذا المقام ، غير ان تعلن رفضها للزواج كلية .

انها لو ارادت ان ترفض الزواج بهذا الرجل لقامت قيامة الدنيا على رأسها ، ولاتهمت بالعشق والتباني مع الآخرين ، وفي ذلك ما فيه من العار والشنار ، وكل ما لا يجري على البال من صفات الاحتقار ، فلم لا ترفض الزواج كلية ؟ ولم لاتتذرع بزهدها بالزواج وعدم رغبتها فيه الى الابد ...

هذا ما قالته نعيمة ، وهذا ما تذرعت به باكية صارخة ، مولولة . ولكن من يسمع ؟ ومن يلتفت ؟ ومن يهتم ؟ ولقد زفت قبلها الملايين ، وهن يصرخن بعدم الرغبة فى الزواج ، فما كان هنالك من يصغي لصراخهن واستغاثتهن .

وزفت نعيمة الى زوجها مكرهة ، ووجدت نفسها تعيش الى جانب زوج اذا حمدت الله على انه لم يكن بشع الصورة ذميما أو دميما ، فهو من طراز لم يكن من الهين اليسير لواحدة مثلها ان تسايره في رغباته ، وتجاريه فى هواه ، فالتجأت الى البكاء ،

وما اشق الذين تنحصر وسائل التنفيس عندهم بالبكاء ، وقد طال بكاؤها ، وطال شقاؤها ، وكانت أمها تذكرها - كلما التقتها - بالمئات من النساء اللاتي زففن وهن مكرهات ، فلم تعمل احداهن ما عملت نعيمة ، ولم تجزع ما جزعت . وكانت تضرب لها المثل بنفسها وتريها منها قدوة حسنة فى التصبر ، وتصور لها كيف تم لها بعد ذلك ان تتغلب على هواها وتصبح من عشاق ابيها ومحبيه الخالصين .

كل هذا كانت تقوله الام لتحمل ابنتها على الاستسلام . ولكن البنت كانت تقول انها لا تقوى على الطاعة - لا تقوى على الطاعة لأن الحلقة التي تجمع بينها وبين زوجها مفقودة ، ولأن النساء اللائي تزوجن على اكراه ، ثم استسلمن وروضن انفسهن على الاستسلام ، فلربما كانت هنالك (جامعة) يعود الفضل لها في تذليل تلك الصعاب وإلانة تلك الطباع ، وماذا افعل قالت نعيمة : ماذا افعل اذا كانت الحلقة التي تربط بين هاتين السلسلتين مفقودة ..

أما الزوج الذي يرى مثل هذا الصدود من زوجه ،

لينسى على الغالب انه هو الذي كان السبب في كل ذلك ، وان مثل ذلك الزواج لا ينتج إلا مثل هـذه الاحوال فيروح في أغلب الاحيان مشيحاً بوجهه عن زوجه . ومفتقداً هو الآخر تلك الجامعة التي تجمع بين شخصين ، زوجين كانا ، أم صديقين. وهكذا شقي الزوجان زمناً طويلا ، وبرما بحياتهما ، وسئما مما هما فيه من عدم التئام ، وعجز المال ، وتكييف الجو ، وتحقيق الرغبات ، مما سد به الخلل عند الكثير من الزوجات ، لقد عجز كل هذا ان يكون حلقة أو شبه حلقة تربط بين نعيمة وزوجها.

وحملت نعيمة ، والحمل عند البعض وسيلة ، كثيراً ما بدلت وغيرت ، وحولت النفوس من حال الى حال ، ولكن نعيمة هي . هي . لم تتبدل ، ولم تتغير ، ولم يجر على حالها شيء ، وولدت نعيمة ، وكان مولودها صبياً ، والكثير من النسوة اللائي زففن الى ازواجهن مكرهات ، قد ربط المولود - والمولود الذكر على الاخص ، بين قلبي الزوجين ، ومحا كل ما كان قد علق بالذهن ، ولكن هذا الصبي لم يعمل شيئاً على رغم كونه قد جاء جميلا حلو الشمائل بهيج الطلعة .

وأحبت نعيمة ابنها من اعماق قلبها ، وشغلت فيه عن نفسها وعن التفكير فى قلبها ونوازعه بعض الشغل ، ولم تكن وحدها التي ولعت بالصبي هـــذا الولع ، وانما كان الأب ، وكانت الجدتان ، وكان الجدان من أبويه أشد ما يكونون ذوبا فيه وحدبا عليه ، ومرت ست سنوات من حياة اشبه ما تكون بالاحلام ، زهرت بهذا الصبي وبأخت له تصغره بسنتين كانت هي الاخرى ذات مقعد ومسند من قلوب اهل البيت .

وذات يوم ، والصبي يلعب مع أولاد الجيران فوق سطح المنزل اذا بقدمه تزل فيسقط من أعلى السلالم الى ساحة الدار ، واذا به يسبح فى بركة من الدماء ، واذا بالبيت ينقلب رأساً على عقب ، واذا بالاصابات تتجاوز العد ، فلم يترك طبيب لم يستشر ، ولم تترك وسيلة لم تتخذ ، وقد مر شهران والصبي فاقد وعيه ، لولا بعض حركة من فكيه حين يزق الطعام زقاً ، ولولا انتباهه بعض الاحيان حين ينادى ، وقد تناوب عليه أبوه وأمه يسحان عليه الدموع ، ويسهران على تمريضه الليلة تلو الليلة وكم مرت عليهما الليالي دون أن يغمض لهما جفن حتى الصباح ،

فشحب منها الوجه ، وارتخت الاعضاء ، وانهار منها الجد واصبحا فى شبه غيبوبة من الوجود ، وحين توفي الصبي كان قد نفد آخر سهم من كنانة الصبر عندها .

وهاهما ذان الآن ، كأحسن ما يكون الزوجان تفاهما وتدانياً وتراضياً ...!!

لقد سألت أم نعيمة ابنتها بالامس القريب . لقد سألتها :

ـ ما الذي جمع يا ماما بين قلبيكما بعد ذاك الجفاء والتباعد ؟

فأجابت نعيمة وهي مطرقة ـ : بئس الجامع الذي جمع بيننا ياأمي .. لقدجمعت بيننا المصيبة ، فكان الشكل هو الحلقة المفقودة .

أداة الشرط

إجمع اربعين امرأة وطفلة وا كثر فى بيت واحد ، وقل لهن : خذن حريتكن في الكلام بما يغنيكن من تفقد حال ومجاملة ، ومن رضا وغضب ، وعتب واعتذار ، وجد وهزل ، فاذا ما اختلطت الاصوات ، وعلت فى غير انتظام وترتيب ، فاعرف انك عند بيت (أم طالب) ، وان هذا اليوم هو يوم (قبولها) .

وأم طالب سيدة امتاز (قبولها) بكونه يجمع الطبقة الارستقراطية الى الطبقة المتوسطة فالطبقة الفقيرة ، وقلما يتفق (لقبول) أن يكون على هذه الشاكلة ، ما لم تكن ربّته كأم طالب غير ذات سعة ، ولكنها بنت بيت عريق ، وذات شخصية محترمة ، يعود لها الفضل فى هذه التشكيلة .

وتعالت الاصوات المتداخلة فى هذا اليوم من بيت أم طالب

وعبرت عدداً غير قليل من بيوت الجيران في مناقشة حادة ، لم يتبينها احد بادىء الامر ، ثم ما لبثت ان انكشفت عن اختلاف شديد بين جمع وآخر من هذه النسوة ، حول الطب والاطباء .

واخذت الحديث أرفعهن صوتاً ، واوضحهن نبرة ، واجرأهن على البت في الامور ، وكن أربع أو خمس نسوة ، انفردن بين ذلك المزدحم بالحديث ، وسيطرن على الجمع بعض السيطرة ، قالت احداهن :

ـ أنا لا اصدق ان هنالك رجلا مثقفاً ، عارفاً بموضعه من الناس ، وقيمته فيهم ، يفكر في ان يسيء الى احد ، أو يزيد مشا كل أحد ، أو يأبى اسداء المعونة الى احد ، فكيف اذا كان هذا المثقف طبيباً وقد اقسم بأن يكون مخلصاً لمهمته ؟ انها المبالغة ... المبالغة وتحوير المسألة ، وعدم ضبطها بحقيقتها هي التي تعرض سمعة طائفة كبيرة من الاطباء للسوء .

وردت عليها الثانية ، ولم تكن تقل عنها سيطرة على المجلس وقالت :

ـ ماذا تقولين ؟ اية ثقافة تعنينها ... وأي يمين تقصدين ؟

أن هذه الاقوال مجرد فلسفة واهية لا تنطبق على الحقيقة ، فلو كان ابن اختي حاضراً هنا لأريتك اياه ، ولكنت شاهدت بعينيك هاتين عينه اليسرى وقد انطفأ نورها تماماً ، بعد أن كان له منها اكثر من بصيص قال الطبيب انه سيجعل منه باباً للمعجزة حين يجعل منه عيناً مبصرة كأختها بدون أقل زيادة ونقصان .

قالت : وتناول الطبيب قسماً من الأجرة واجرى العملية .
ولكن المعجزة التي تعبر عن خرق العادات تجلت تماماً في اطفاء ذلك البصيص ، فلم يعد الفتى يرى شيئاً ، وحمدنا الله على ذلك ، وكان الأمر يكون هيناً لو وقف عند هذا الحد ، ولكن تعالين . . . تعالين وانظرن . . . لقد ارسل الطبيب بكل وقاحة وصلافة يطلب بقية الأجرة . . . فأين تضعن هذا العمل من مواضع الضمير . . . ؟

وعاد اللغط ، وعادت الضوضاء مرة اخرى تهز البيت والبيوت المجاورة ، فلم يميز أحد بين انصار المدافعة عن جميع الأطباء ، وبين المتهمة لبعض الأطباء وأنصارها .

وهناك انطلق من ركن البيت صوت امرأة أجش في نبرة

من نبرات المعتدات بأنفسهن وصاحت بهن :

ـ أتسكتن وإلا . . . ؟

فسكتت النسوة ، ورحن يحدقن الى وجهها ، وكان كالحاً عما كان يبدو عليه من علائم الاحتجاج ، ثم صوبن كل عيونهن الى فمها ، ووجهن كل اسماعهن اليها ، فقالت وهي تدفع بفتاة أمامها لتقف بها منهن وجهاً لوجه . قالت :

ـ ان من تعرف (نجاة) هذه ، تعرف كل الحكاية . . . ومن لم تعرف منكن (نجاة) فلتعرفها الآن ، فهي البنت الشقية المظلومة الصماء من الاذن اليمنى (يا ويلي عليها)

كانت نجاة قبل بضع سنوات صبية تلعب بين الصبيان والصبايا ، وفى هذا الدور ، دور لعب الاطفال ، يجب أن تكون لكل أم الف عين لمراقبة أطفالها ، وإلا كلفها ذلك حياة هؤلاء الاطفال برمتها أحياناً ، ذلك لأن الطفل يكون عبثاً فى مثل هذه السن ، ويتجاوز العبث منه كل احتمال ، فلا تدري الأم متى يشعل الطفل النيران بقصد اللعب ، فيحترق منه ثوبه وقد يحاول الآخر أن يطفئه فيحترق منه

طرف لباسه ، ثم إذا بواحد أو اثنين أو اكثر يمسون نزلاء المستشفى أو نزلاء القبور في لحظات فقط .

واحتمال الخطر للصبيان في كل لحظة أمر يجب أن لا يغيب عن ذهن والديهم

وانصبت لعبة الاطفال كلها في هذا اليوم على نواة من نوى التمر ما لبثت أن تحولت الى شرط من الشروط :

- ترى من ذي التي ، أو من ذا الذي ، يستطيع أن يدخل هذه النواة في قناة اذنه ثم يخرجها ؟ واذا استطاع الطفل أن يفعل ذلك ، فمن هو الذي يستطيع أن يسبق الجمع ويقوم بهذه العملية قبل غيره ؟

وجرب الصبيان والصبايا هـذه اللعبة ، وتسابق الجميع في ادخال النواة داخل آذانهم واخراجها منها ، إلا (نجاة) فقد دخلت النواة في اذنها ولم تخرج . . .

وضحكت الصبايا والصبيان من (نجاة) بادىء الأمر ، ثم تحول هذا الضحك الى وجوم عندهم ، ثم هجوم عليها لمعالجـة النواة واخراجها من أذنها بعد أن عجزت (نجاة) عن اخراجها

بنفسها ، والسفينة اذا ما كثر ملاحوها غرقت كما يقول المثل ، فكيف بأطفال لا يعرفون مداخل الامور ومخارجها ، ولا يدرون من أين يجري رتق الفتق ، فمازالوا يدفعون بالنواة في اذنها كلما هموا باخراجها ، واذا بالطفلة تصيح وتستغيث .

وجاءت الى امها راكضة ، وأم نجاة - كما تعلمن - جارتنا العزيزة ، وكنت عندها - قالت المرأة - حين اقبلت الطفلة مولولة ، ومن حولها الاطفال واجمين ، وحين عرفت الام الخبر وقعت بجسم ابنتها ضرباً ولكماً ، ثم جاءت بمنتاش صغير واستعانت بي على وضع رأس البنت في حجري ، وتقييدها عن كل حركة يخشى أن تجيء بها ، وبدأت الأم تعالج النواة بالمنتاش .

ولم يكن حظ الأم بأسعد من حظ الاطفال الذين حاولوا أن يخرجوا النواة فاذا بهم يدفعون بها الى الداخل اكثر واكثر ، واذا بالنواة تصبح مشكلة معقدة ، ليس من سبيل الى حلها بدون مراجعة طبيب اختصاصي .

ونجاة طفلة يتيمة ، مات أبوها منذ سنتين ، (وهنا خفضت السيدة المتكلمة قليلا من صوتها ، بعد أن التفتت يمنة

ويسرة) وقالت : (الحكي بيننا اهلهـا ناس فقراء) واستمرت تقول ، ولم يبق من يعيل أم نجاة وابنهـا وبناتها الثلاث غير اخيها الساكن في محلة تبعد عنهم كثيراً .

(وهنا خفضت المرأة صوتها مرة أخرى) وقالت :(والخال هو الآخر فقير) ثم استمرت وكانت الاذان كلها مرهفة لسماع قصة نجاة الشاخصة أمام ذلك الجمع المحتشد في (قبول) أم طالب .

قالت السيدة المتكلمة ، وبعثت الام تستدعي اخاها اليها ، وطال انتظارها له أياماً ، ثم ارسل أخوها يقول لها : انـــه مشغول ، وأن بامكانها ان تعرض ابنتها على الطبيب وهو مستعد لدفع الاجرة .

وسارت أم نجاة بابنتها الى المستشفى، وانتظرت هنالك حتى جاء دورها ، فاذا بالطبيب يلمح لها بأن الامر يحتاج الى عملية جراحية ، ثم يخلفها ويمضي الى شأن آخر، فلم تفهم الأم ماقال ، ولم تدر لم لم يأمر الطبيب باجراء اللازم استعداداً للعمليـة ؟ وبعد انتظار طويل ، واستفهامات من هنا وهناك ، علمت أم نجاة بأن دون اجراء هذه العملية خرط القتاد ، وان عليها إذا

أرادت ان تتم هذه العملية ، ان عليها ان تدفع للطبيب مبلغاً معيناً وإلا فلن تحصل على نتيجة مرضية ولو اقامت هنا شهوراً ...!

* * *

وعادت أم نجاة الى البيت ، واستطاعت في اليوم الثاني ان تدبر نصف المبلغ المطلوب وجاءت الى الطبيب في عيادته الخاصة تقول انها لم توفق الى اكثر من هذا ، وهى موعودة بمبلغ اذا جاءها فلن تتوانى عن دفع النصف الثاني، لأنها امرأة معوزة لا طاقة لها على تكاليف الحياة .

قال الطبيب - وما العمل ؟ ان الناس جميعهم يقولون هذا . . . فاذا اردت ان اصدع بما يأمر الناس ، وانزل على رغباتهم وجب علي ان اغلق العيادة واستريح . . .

قالت - دخيلك دكتور .. بنتي.. بنتي ..، وان البنت غير الصبي فاذا بقيت صماء أخل ذلك بمستقبل زواجها وشقيت ، ولك عهد الله ان آتيك بالبقية ان قمت باجراء العملية واخرجت النواة

وقام الطبيب بأتخاذ المقدمات بترطيب قناة الاذن وتضميد الصيوان من الداخل ، ثم سحب بعد ذلك النواة من الاذن فى

شيء من الكلفة ، وقال ان عليها ـ أي على أم نجاة ـ ان تجيء بابنتها كل يوم لمعالجة ما تركت النواة والعملية من خدوش وأذى في طبلة الاذن ، كما أن عليها أن تجيء ببقية المبلغ غداً وبدون توان . . . وإلا . . .

اما معنى هذا الشرط من قوله (وإلا) فلم يكن واضحاً للأم ، بل وانه ليس بواضح لكنَّ انتنَّ المستمعات ما لم تكنَّ مسبوقات بالقصة قبلا .

* * *

ومضت أم نجاة في اليوم الثاني الى الطبيب معتذرة ، وقالت انني لم اوفق الى شيء ، ولكنني لا أزال عند عهدي حين يتسنى لي أن أحصل على شيء . . .

قال ـ فاذا لم تحصلي ؟

قالت ـ ان الله كريم يا سيدي . . .

فثار الطبيب في وجهها ، وبقساوة معدومة النظير ألقى برأس الطفلة نجاة على المنضدة ، وبدلا من أن يتولى غسل اذنها ومعالجة جراحها كما كان يفعل كل يوم ، مد يده

الى النـــواة فدسها في اذن الفتاة من جديد ، وأعادهـا
الى ما كانت عليه يوم جاءت بها أمها اليه أول مرة ... ؟

ما كل بيضاء شحمة

ما كاد ينطلق صوت الاستغاثة من بيت السيد سالم ، حتى هرع الجيران من جميع الجهات الى مصدر الصوت ، وكان الوقت قبيل الساعة العاشرة ليلا ، وكان اغلب سكان هـــذه البيوت إلا ما قل من الشبان قد أووا الى بيوتهم ، فاندفع الجيران الى بيت السيد سالم مستطلعين ، وملبين ، ومنجدين ، وهناك ألفوا زوجة السيد سالم في شبه إغمـــاء ، اما طفلاها الصغيران والخادمة الصغيرة ، فقد كانوا يصرخون من الخوف .

وعلى ان الزوجة كانت فيما يشبه الغيبوبة ، فقد قالت لهم : انه اللص ، ثم أشارت الى غرفة الطعام .

وبحث الجميع في كل زوايا البيت ونواحيه ، فلم يروا أي أثر يدل على دخول أي احد الى البيت ، فعادوا يسألون الزوجة وكانت قد استعادت بعض نشاطها وأمنت ، لقد عادوا يسألونها :

ـ أأنت واثقة من انك رأيت اللص ؟

قالت ـ طبعاً . . طبعاً . . لقد سمعت صوت قرقعة في غرفة الاكل . . باذني ، وحين خفقت الى مصـــدر الصوت رأيت شبحه بعيني هاتين .

وكثرت الأسئلة التي وجهها الجيران اليها عن طول الرجل وعرضه ، وسائرصفاته ، فلم تزد شيئاً على ماقالت ، قالت : انها لا تستطيع أن تزيد شيئاً ، لقد سمعت صوتاً ينبعث من غرفة الطعام وحين خفت الى الغرفة رأت شبحاً يمر وكفى . . .

وفي هذه الاثناء وصل السيد سالم الى بيتـه وكان لم يزل حتى تلك الساعة خارج البيت بعد ، فالفى البيت مضاء من جميع اطرافه . ووجد هذا الجمع من الجيران وقد ملأوا صالون الدار ومدخل البيت .

ولا شك ان مثل هذه المفاجأة مما تثير القلق في النفس ، وتهيجها ، وحين علم بجلية الامر لم يزد شيئاً غير أن قال :

ـ انها اوهام . . . اوهام واخيلة كثيراً ما غررت بالناس فغيرت منهم افكارهم وعقائدهم ، ولربما وجهتهم توجيهاً منحرفاً

عن الصواب إذا ما استكانوا اليها ، وإلا فأين هو اللص ، وهذه الابواب كلها كانت مغلقة حين جئتم للنجدة كما تقولون . . . وإذا كان اللص قد خرج في التو وصفق الباب خلفه قبل أن تصل النجدة فلم لم تسمع زوجتي صفقة الباب ، ثم دعا السيد سالم بعض جيرانه لتناول القهوة عنـــده وقال : انها فرصة سعيدة أتاحت لي ان ارى عدداً من جيراني الاعزاء الذين لم ارهم منذ زمن بعيد ، وان الوقت شتاء ، والساعة لم تتجاوز العاشرة إلا قليلا ، فاعتذر البعض واجاب البعض دعوتـه ، واضرمت النار وجلس الجميع متحلقين حول الموقد ...

* * *

قال السيد سالم : - ما ادري لم يخجل الانسان حتى من نفسه حين تمر عليه ذكرى خطيئة اخطأها ، أو عثرة عثر بها ، أو مسأله ولو كانت تافهة ، ولكنها تصلح ان تكون موضوع تفكه او تندر ؟ ؟ وهـذا ما اشعر به الآن ، وانا احاول ان اروي لكم لأول مرة حكاية الاوهام التي واجهتها بنفسي .

قال - كنت قبل اكثر من ثلاثين سنة ، وقبل ان ارتدي

السترة والبنطلون ، لقد كنت بزازاً ، وكانت بزتي يومذاك مؤلفة من قباء طويل وجبـــة و (كشيدة) وهي العمة التي لا يزال يلبسها النجار وكثير من البزازين ، وكنت اغلق دكاني قبيل الغروب من كل يوم فأوجه وجهي نحو مسجد اؤمن بصلاح امامه فأصلي مؤتماً به ، ثم اعرج على مقهى هناك سامراً قبل تناول العشاء ، اما اكثر اصدقائي من مرتادي هذه المقهى ، فقد كانوا يؤمونها بعد العشاء ، ونظل نسمر هناك حتى مثل هذه الساعة التي رأيتموني فيها عائداً الى البيت .

***

وفي ذات ليلة امتد سمرنا الى ما بعد الحادية عشرة ، وقد ألهانا موضوع فكاهي اسكر حتى الجالسين بالقرب منا ، ولم اكن يومذاك متزوجاً لاحاسب نفسي ، أو ليحاسبني احد على الساعات التي افرطها في هـذا النوع من اللهو ، وعدت الى البيت ، وكان بيتنا في احد الاطراف النائية من المدينة ، فالوصول اليه لابد وان تمر بعـدد من الازقة الضيقة ، القليلة النور والموحشة التي كثيراً ما تلقي منعطفاتها المظلمة حينذاك

بعض الرعب في النفوس ، ورحت اطوى تلك الطرق الملتوية
واذا بي احس لأول مرة بصوت اشبه باصوات الجلاجل وهو
يتعقبني والتفت الى الوراء فلم أر شيئاً ، فاسرعت واسرع
الصوت في تعقبي ، والتفت مرة أخرى ، ولكني لم أر شيئاً ،
وهنا أيقنت ، لقد أيقنت بأن الذي كانوا يتحدثون به عن
الأرواح الحائمة فوق المقابر ، وفى الخرائب ، وفي مثل هذه
الطرق الموحشة - أمر صحيح ، وان هذه الجلاجل انما هي
اصواتها ، أو اصوات الجن بدون شك وريبة ، وقد بدأت
تنبعث من بين رجلي ، ولم ادر كم ظللت فى مثل هذه الافكار ،
وكلما ادريه هو انني سقطت وغبت عن الوعي ولم افتح عيني
إلا فى البيت ...

* * *

أجل لقد اغمي علي ... ومر من هناك الحراس فوجدوني
منكفأ على وجهي فحملوني - وقد عرفني أحدهم - الى البيت .
وقصصت هناك - وبعد ان افقت - القصة على من كان قد
حضرني من الاهل والاقرباء - ، ولربما قصصتها بشيء اكثر من

التهويل ، وكانت الافكار يومذاك خاماً ، فأيد اكثرمن حضرني تلك الواقعة واشار على سبيل المثال الى عدد من الذين ظهرت لهم الارواح في الطرق الموحشة من الذين رأوا اشباحها بعيونهم .

وبعد يومين وانا في الفراش اعاني نتائج هذه الهزة العصبية العنيفة ، قمت ، لقد قمت قاصداً السوق لأفتح الدكان . ومددت يدي الى جيبي فلم اجد مجموعة المفاتيح ، ولكني وجدت ثقباً في الجيب كانت المفاتيح قد ولجت منـــه الى ذيل القباء من الوراء واستقرت بين القباء والبطانة ...

* * *

اذن فصوت الجلاجل الذي كان يتعقبني لم يـكن صوت جـــلاجل ، ولا صوت ارواح ، أو اصوات جن كما كنت قد ظننت وانما كان صوت تلك المجموعـــة من مفاتيح الدكان . . .

وقال السيد سالم : واخفيت الامر خجلا من الناس ،وراح الكثير يستشهد بي كلما ورد ذكر للارواح والعفاريت ، وانا اؤيد ذلك واقص قصتي في كل مرة بشكل ساحر جذاب يزيل

كل شك في نفوس الكافرين بالارواح والجن والعفاريت .

* * *

وانفرط عقد الاجتماع في تلك الليلة من بيت السيد سالم ، وقد آمن الجميع بأن الاوهام قد تفعل الاعاجيب ، وان زوجة السيد سالم في رؤيتها الشبح كانت كزوجها في سماعه صوت الجلاجل

* * *

وفي الصباح استيقظ سكان المحلة وجيران السيد سالم على حركة غير اعتيادية في بيت السيد سالم ، فقد اصبح كل الحلي والنفائس مسروقة من هذا البيت .

وقد اسفر التحقيق عن ان الشبح الذي رأته الزوجة في أول الليل لم يكن شبحاً خيالياً كما ظن زوجها ، وانما كان لصاً تسلق من حديقة الدار نخلة كانت هناك ، فلم يره الجيران حين قاموا بتفتيش البيت في تلك الليلة ، ولربما كان اللص قد سمع السيد سالم وهو يعلل مثل هذه الظواهر لجيرانه ويعزوها للاوهام، لربما سمع اللص تلك القصة وتعليقات الآخرين عليها فأمن ،

واستقر ، وعاد ليلج البيت من طريق نافذة الحمام التي اقتلعها بسهولة ليثبت للسيد سالم ان ليس كل بيضاء شحمة ، ولا كل سوداء فحمة ، ولا كل مدور جوزاً كما يقول المثل العامي ؟

لم تكن هي

لقد أشرف على الاربعين أو كاد ، ولم يعثر بعد على المرأة التي تصلح أن تكون زوجة له من حيث الخلق والتكوين ، فضلا عن الخلق والمزاج ، حتى يئس ، وقد تملكه هذا اليأس فمال الى دعاة العزوبة بعض الميل .

نعم انه أعجب بأكثر من واحدة ، ولكن قلبه لم ينبض بالحب ، ولم يتعد الاعجاب حدوده منه ، ولم يدن به الى الافتتان ولا مرة .

واليوم يلتقي لأول مرة بهذه الفتاة الجميلة ، لقد التقاها في بيت اخيها يوم دعي اول ما دعي لحفلة الكوكتيل التي أقامها اخوها في بيته ، تكريماً لرئيس الدائرة التي يعمل فيها .

ولم يعرف هذا عن أخيها إلا انه موظف مثله في أحد مكاتب النفط ، وقد تلقى العلم هو وأخته هذه بالجامعة الاميركية

ببيروت ، ولكن اخاها لم يكتب له التوفيق فعاد الى بغداد دون أن يظفر بالشهادة ... اما اخته فقد انهت دراستها وحصلت على شهادة الجامعة ، وهي تعد عدتها للسفر الى الخارج للاختصاص ، وهذا كل ما سمعه عنها وعن اخيها .

* * *

لقد رآها لأول مرة في هذه الحفلة التي اقامها أخوها الموظف في بيته ، وكان قد سبق الى علمه ذلك المجمل عن ثقافتها وفطنتها قبل ان يراها ، فاذا به امام آنسة مكتملة الانوثة ، فيها الشيء الكثير من الملاحة والجاذبية ، ومما يحب ويهوى ، وهي وان تكن في الشطر الاخير من العقد الثالث ، لكنها كانت تبدو دون ذلك بكثير .

• • •

ولم يكد يلقي عليها النظرة الأولى حتى قفز الى ذهنه عدد من الاسئلة والاستفهامات :

ترى كيف بلغت هذه الآنسة هذه المرحلة دون أن تخطب أو تتزوج وهي بمثل هذه الروعة وهذه الجاذبية ؟ فقد كانت

اصابعها فارغة من اية حلقة او خاتم يدل على انها مخطوبة او متزوجة ، وكانت حمرة شفتيهـا خفيفة تقـارب الحمرة الطبيعية التي لم تلامسها حمرة (الشفايف) التي تعتمدهـا المتزوجات فى زينتهن ؟ انه لا يدري كيف استطاع الذين تعرفوا اليها ـ من زملائها في دراستها الجامعية وممن عرفـها من الاصدقاء ـ ان يتغاضوا عن جمالها وكمالها وعن خطبتها أخيراً ؟

* * *

وإذا كان قد جرى ذلك ولم يتم ، فما هي أسباب رفضها لخطبة الخاطبين ، فهـل هي من هؤلاء النسوة اللاتي يركبن رؤوسهن ـ كما يقولون ـ ممن لا يقمن وزناً للزواج ولا يعبأن بالنظم الاجتماعية ؟ وإلا فـكيف يمكن أن تقطع فتاة مثقفة ، جميلة ، رائعة ، مثل هذه المرحلة دون أن تفـكر بالزواج .

* * *

وكثرت الأسئلة وتشعبت ، ولـكنه استطاع ان يطويها ولو لمدة موقتة ، في احدى زوايا ذهنه ، وراح يمعن النظر فى هذا الوجه الجميل المشرق ، وهذه الملامح الجذابة . فبـدا له انه

يعرفها من قبل ، ولربما عرفها منذ زمن بعيد ، وحين تعمق في تأملاته وفي قسمات وجهها ادرك تماماً انه لم يعرفها وانما عرف هذه المجموعة من الصفات التي طالما تمنى ان تجتمع في امرأة فاجتمعت هنا .

وكان قد تعرف بعددمن النساء فوجد ان بينه وبين النبي (ابراهيم الخليل) وجهاً من الشبه ، إذ لم يكد يبزغ نجم من هذه النجوم حتى يعلق به بصره مسحوراً بضوئه ولألائه فاذا ما أفل راح ينشد الكمال في نجم ثان وكوكب آخر . ولكنه يجزم اليوم كل الجزم بأنه قد رأى البدر الذي لا يخسف ، والقمر الذي لا يمحق .

* * *

وكان ذكياً ، وكان ظريفاً ، فاستطاع أن يوجد اكثر من مناسبة واحدة للتحدث اليها في تلك الحفلة هنا وهناك وبين وقوف المدعوين والمدعوات ، فزاد يقيناً على يقين بأن الفتاة التي ينشد ليست غيرهذه التي استلفتت انظار المدعوين اكثر مما استلفتته زوجة أخيها التي لم يرها ، وسائر الآنسات ، والسيدات ، من المدعوات .

وعاد الى بيته يفكر في الطريقة التي يقدم بها على خطبة الفتاة ، هل من الأنسب وهي الفتاة المثقفة المتحضرة أن يتصل بها تلفونياً فيطلب منها موعداً يتحدث فيه اليها عن الخطبة ، أم يكتب لها كتاباً يذكر لها كل شيء من امره ويطلب منها يدها رأساً وبدون مقدمات ؟

* * *

وأخيراً رأى انه وان بلغ ما بلغ من الثقافة ، ثم وان بلغت فتاته ما بلغت فانهما - أي هو وهي - لا يزالان شرقيين مأسورين للعادات والتقاليد ، وان الطريق الوحيد هنا محصورة بأخيها ... فلماذا لا يعرض الامر على أخيها ؟ وأخوها رجل يقدره وان لم تكن بينهما صلة سابقة أو معرفة اكثر من انتمائهما لدائرة واحدة من دوائر النفط ، انه يقدره لأنه قد انهى دراسته الجامعية بانكلترا واخوها لم ينه بعد الدراسة ، ولأنه يتقاضى راتباً اكثر من راتب اخيها ولأنه غير مكروه على الاقل عند جميع موظفي الشركة اذا لم يكن محبوباً من لدن

الجميع ، ولأن ... ولأن ...

* * *

وجاء الى اخيها في مكتبه يدعوه لتناول الشاي في بيته ، وحضر الاخ ، وكانا اثنين لاثالث معهما ، وساق الرجل الحديث سوق الاديب اللبق حتى ربطه بالموضوع ربطاً طبيعياً ثم عرض له رغبته في خطبة اخته نازلا على جميع الشروط التي تشترطها عليه .

قال الاخ - ولكن اختي لم تكمل دراستها ، واحسب انها لن تقبل الزواج قبل حصولها على شهادة التخصص .

قال - سأنتظرها ريثما تتم الدراسة اذا لم يكن لديها مانع .

قال - ولكنك لم ترها ولم ترك ولا اخال ان زواجاً مثل هذا سيكون مقبولا في الوقت الحاضر .

قال - لقد رأتني وقد رأيتها ، ومثل هذه الرؤية الخاطفة قد تكون غير كافية عند البعض ، ولكني اعتقد ان الناس ليسوا سواء في مثل هذه الامور .

قال الاخ - وعلى انه ليس من حقي ان اسألك متى رأيت

اختي وكيف رأيتها ولكني اذهب الى ان مثل هذه الرؤية لا تكفي لأن تكون عماداً لزواجك وزواجها ، ومع هذا فانني سأكتب الى اختي واخبرها بالامر مفصلا . .

قال - ولكن لم لا تكلمها شفاهاً

قال - انها في اميركا منذ سنة ، تعد نفسها لشهادة الدكتوراه فكيف يمكن الاتصال بها من غير طريق المكاتبة !

* * *

لقد بهت الرجل ، واحس بالعرق يتصبب من جميع مسامه ثم اعتراه ما يشبه القشعريرة ، بل لقد احس بهزة عنيفة تنتاب الجملة العصبية منه فتبدو مظاهرها جلية في عينيه وعلى شفتيه واطرافه ، ومع ذلك فقد سأل : .

- اذن ومن تكون هذه الآنسة التي كانت تطوف على المدعوين قبل يومين في بيتك وتوزع عليهم الابتسامات المشرقة واللطف والظرف والعطف والادب ؟

لقد ضحك الزميل ، ضحك عالياً وقال :

- عفواً اذا رأيتني ضاحكاً ، فقد يكون الأمر من الالتباسات المضحكة إذ الآنسة التي اشرت اليهـــا لم تكن إلا سيدة ، وانها قرينتي ، وهي اليوم أم لثلاثة اولاد ؟

الـكنز

قال احمد يعلق على ما مر من حديث المفاجآت :

قال ـ: لقد رأيته يكثر الذهاب والأياب بشارع الرشيد من بغداد فى خطى متثاقلة قصيرة ، وتأملات عميقة طويلة ، ثم يلج بعض المحلات ليقلب بعض البضـائع ، ويساوم عليها دون أن يشتري شيئاً .

ولقد مر علي ، وأنا يومذاك اعمـل فى احد المتاجر ، مستفهماً عن اثمان بعض الأمتعة ، وسائلاً عن أشياء أخرى ، ولـكنه لم يشتر شيئاً .

وكانت هيئته تنم عن غنى وامتلاء ، على رغم كونه درويشاً وفي بزة الدراويش ، فقد كانت تزين اعلى قلنسوته المنطلقة من العامة درة متلألئة ، وكانت ساعته الجيبية مدلاة بسلسلة ذهبية متصلة بزر (الزخمة) من صدره ، وكانت جبة الخز

الفاخرة التي يرتديها ، والحـــذاء اللماع ، والعصا الآبنوس المفضضة والمنتهية برأس هيكل لطير من طيور الحمام التي يحملها، كانت كل هذه عناوين رجالات نشأوا في (التكايا) وفي زوايا الدروشة الرافهة السعيدة ، المستغنية بنعمة التكايا عن طلب الرزق والركض وراءه .

ودخل متجرنا ثلاث مرات أو اربعاً خلال يومين أو ثلاثة ، ولـكنه لم يزد على ما كان يفعل في كل مرة .

اما في هذه المرة فقد تبسط اكثر ، وتفضل فجلس بجانبي، كذلك تفضل فتناول قدح الشاي مني ، وكانت فرصة سعيدة تطرقنا فيها الى بعض المواضيع علمت منه بأنه ملم بعلم (الجفر) هذا العلم الذي يتحدث عن المغيبـات ، والذي لم اكن اؤمن بوجوده فضلا عن ايماني بحقيقة مفعوله .

وقال : قال انه مطلع على الكثير من الخفايا ، وانه يستطيع أن يقرأ (الطالع) ويتحدث عن الماضين كما لو كان قد شهد الوقائع رؤي العين ! !

ولقد علم على ما قال بواسطة الجفر ، لقد علم بأن الدار

التي اسكنها أنا تضم كنزاً وافر المال يرجع تأريخه الى مايقرب من عشرين سنة ، وانه مستعد لكي يقوم بكشف الستار عن ذلك الكنز متى دعوته الى ذلك بدون أن يتقاضى مني شيئاً .!!

وكان من الطبيعي أن ادعوه الى ذلك ، فما الذي يضر لو انتهى الامر على خلاف ما زعم فلم نجد هنالك كنزاً ؟ أفلست اقضي بعض الوقت سعيداً بحديثه ، ناعماً بقصصه الممتعة .

ودعوته فى الليلة الثانية الى تناول العشاء في بيتي ، وبعد ان استقر به المقام سألني عن أمي ، وطلب مني ان احضرها أمامه ، وكانت خالتي في زيارتنا يومذاك فحضرتا معاً ؟.

وكان الدرويش قد اتكأ على احدى الوسائد . وقد بدأ يلاعب لحيته البهية بأصابعه وهو يتأمل امي ، وبعد أن رحب بها وجّه الكلام اليها قائلا :

- ما اسمك يا أماه ؟

قالت - فاطمة . .

قال - اسمعي يا أم احمد ، ألم يكن زوجك ابراهيم قد مات وطفلك هذا - وأشار إلي - لم يزل صغيراً ؟

قالت - نعم

قال - أولم يكن لك ولد آخر يكبر هذا الولد بنحو سنتين ؟

قالت - نعم (وانحدرت دموعها على خديها)

قال - أولم يكن اسم ولدك الكبير (اسعد) ؟

قالت - نعم .

قال - فافتقدته وهو ابن عشر سنوات ، وبحثت عنه فى كل مكان فلم تعثري عليه ؟

قالت - اللهم بلى . . . .

قال - وفتشت كل حارة ، وكل زقاق حتى يئست ؟

قالت - اللهم بلى

قال - ويكون الآن قد مضى اكثر من عشرين سنة على فقدانه ؟

لقد بكت الأم طويلا ، اما انا فقد دهشت بعلم الرجل وكشفه المغيبات ، وقد كدت اجن لفرط ما سمعت من الدقائق التي كشف النقاب عنها فى أسئلته واجوبته ، ورأيتها فرصة اثمن عندي من الكنز الذي آمنت بوجوده بعد انكشاف هذه

الحقائق لو اني سألته عن مصير اخي المفقود ، فقلت له :

- كلما قلته صحيح ياسيدي ، ولكن هل ان اخي الفقيد حي يرزق ؟

قال - انه لحي يرزق

قلت - واين هو الآن ؟

قال - انه فى العراق . . . وكان قد اختطفه رجل وابعد به في الشمال وفي اواسط تركيا ، اما الآن فقد مات الخاطف الذي كان يحبه اخوك كثيراً ، ويقدسه كثيراً ، واصبح (اسعد) الآن حراً .

قلت - أهو بعيد عن بغداد ؟

قال - لا ، بل انه قريب منكم وبوسعكم ان تروه إذا ماشئتم

قالت أمي - أبوسعنا ان نراه متى شئنا ؟ انـــه شيء لا يصدق ، لا يصدق ابداً .

فقال الدرويش - ولـكن كيف يكون لك ان تكذبي رجلا مثلي وقد انبأتـكم حتى بما قد غاب عن اذهانكم .

قالت - قل لي . . قل لي اين هو الآن . . ؟

قال - انه في محلة السفينة من الاعظمية انه في هذه المحلة نفسها ،فتراخت اعضاء أمي وهكذا تراخت اعضاء خالتي ، وفي شبه اغماءة وغيبوبة صاحت :

- قل لي رحمك الله . قل لي اين من محلة السفينة هو ؟

قال- انه دخل بغداد منذ اسبوع ، وقد بحث عنكم في جميع المحلات،واستقصي اخباركم من مظانها هنا وهناك حتى اهتدى الى محل اخيه احمد بشارع الرشيد وجاء معه الآن الى بيته ليراك وتريه !

فكان بكاء ، وكان انتحاب ...

حينما يفرغ الجيب

كثيراً ما تكون العـــلاقة قائمة بين الدماغ والجيب ، فيفرغ الدماغ من الادراك حينما يفرغ الجيب من الدراهم ، ويفرغ الجيب من الدراهم حينما يفرغ الدماغ من الادراك .

هذا ما قاله لي صديق قديم كان موظفاً في الحكومة ثم فصل من الوظيفة لسبب لا اعرف مدى وجاهته وقيمته المادية.

وساءت احوال الرجل ، وركبته الهموم حين لم يجد العمل الذي يسد به عوزه ، وتحكم فيه اليأس ، حتى اضناه ، وقد لجأ الى بعض حاجات بيته فرهنها أولا، ثم باعها مضطراً ، ولكنه ظل في فقره كما هو .

قال لى هذا الصديق :

ـ كنت اسمع عن الايام السود ، فكنت احسب انها اوصاف أريد بها المبالغة فى الشدة ، وإلا فكيف يمكن أن تكون

الأيام سوداً ، وحين امتحنت ، وحين فرغ جيبي نهائياً رأيت بعيني هاتين سواد الأيام . لقد رأيت الايام تسود حقيقة في عيني فلا اكاد اميز شيئاً ولا ابصر شيئاً ، ثم ذقت من مرارة الحياة ما لا اطيق وصفه ، وما لا يعرف مداه إلا الذين انقطعت بهم الاسباب ، فيئسوا من انفسهم ويئسوا من الفرج ، فلقد طال عطلي عن العمل وأنا رب عائلة يزيد مجموعها على عشرة انفار بين كبير مثلي جزع فاختل توازنه ، وصغير جهل فنفد صبره ، وناهيك بالفقر عاهة من أشد عاهات الحياة ، ومرضاً من افتك امراض المجتمع ، وبلية ظلت موضوع الفلسفة منذ أول تاريخ البشرية حتى اليوم ، وقد أشبعها العلماء بحثاً فلم يتوصلوا الى العلاج العملي الشافي الذي يقضي عليها قضاءً نهائياً .

قال - وطرقت جميع مظان الرزق فلم يبق لي إلا ان ابيع بيتي الحقير العتيق الموروث من ابوي وهو كلما بقي لي من دنياي بعد بعض الحاجات الضرورية التي لابد من بقائها ، والتي لا احسب انها ستجلب ثمناً لو تصديت الى بيعها .

وفي منتصف ليلة من هذه الليالي النابية التي كنت

أنامها غراراً وكنت قد نمت بعد أن ملني مضجعي من كثرة التقاب ، وبعد ان تراخت أعضائي من كثرة السهر ، استيقظت على اثر هزة عنيفة اختض لهـــا كل جسمي ، فاذا بزوجتي تستقبلني بوجه باسم يفيض بشراً وطمأنينة وهي تقول لتبعد الخوف عني :

تقول - خطف الخضر وتكررها : خطف الخضر ، خطف الخضر ....

ولست ادري كيف يخطف الخضر ، ولماذا يخطف ؟ وكلما أدريه هو أن هذه الكلمة تقال لطرد الخوف المفاجىء للنفوس وعلى الأخص نفوس الأطفال ، وحين اطمأنت من سلامة عقلي ، وامتلاكي لنفسي قالت : - انهض . . انهض فقد فرج الله كربنا ، وجاءنا الرزق الذي كنا نطلبه بالمشقة فلم نظفر به ، واذا صح حلمي الذي رأيته في منامي منذ دقائق - وسيصح بلا شك - فمعنى ذلك ان الحظ قد واتانا ، وما عليك الآن إلا أن تحفر ركن البيت الغربي من المطبخ لتحصل على كنز مخبوء هناك .

ثم اردفت قائلة :

- هذا ما قاله لي النبي سليمان عليه السلام في الحلم الذي رأيته قبل دقائق . .

من كان يظن اني سأضحك ملء شدقي أمام هذه البشارة التي جاءتني بها زوجتي بعد منتصف الليل ؟ من كان يظن انني سأضحك حتى اكاد أغص بضحكتي المتصلة التي ضاع فيها الشهيق والزفير حتى تكسرت على شفتي وانا على تلك الحال من المرارة التي اصبح وأمسي عليها ؟ من كان يظن ذلك ؟

ولكنني ضحكت ، وكانت ضحكتي مزيجاً من السخرية والألم ، والشعور بفداحة المصيبة التي قيل عنها و (شر المصيبة ما يضحك) ثم اندفعت أفهم زوجتي بأنها لم تكن كاذبة ، وانني لا أشك بأنها قد رأت النبي سليمان في حلمها ، وانه حدثها بالكنز حقاً ، ولكن حلمها هذا ليس إلا ضرباً من ضروب تركيز افكارها فيما نحن فيه من عسر ، وانه ليس سوى صدى لبقية املها بالغيب حين عز عليها تحقيق الأمل بالوجدان .

واني للمرأة ، او اني لامرأتي على الأصح ان تسلم برأي

زوجها ولا سيما إذا كان زوجاً خائباً مثلي ؟ فنامت وملء اجفانها الغضب .

وفي الصباح ، قصت في الصباح على بناتها الست الحلم الذي رأت ، ووصفت لهن النبي سليمان حين اقبل وحين تكلم وحين اشار اليها بأن تبشر زوجها بانفراج الازمة ، وتدله على الكنز المخبوء في الركن الغربي من البيت .

وقالت لهن ـ: اما ابو كن فلم اسمع منه غير ضحكة رنانة عبر بها عن اقصى ما تبلغ السخرية والاستهزاء ، فأقبلت البنات علي يلمنني ، ورحن يصححن لي عقيدتي ، ويضربن لي الف مثل لأحلام كهذه قد تحققت ، ويطلبن مني الشروع بحفر البيت عاجلا ، ولكني أبيت .

وتلت تلك الليلة ليلة ثانية ، وفي صباح اليوم التالي جاءتني احدى بناتي مسرعة وهي تقول :

ـ اقسم لك بالله يا ابتي انني أنا الاخرى قد رأيت النبي سليمان في حلمي الليلة البارحة ، وقد أكد لي وجود الكنز في المكان المذكور وقال لي : قولي لأبيك ان عليه ان يصدق أمي ويطيعها .

واجتمعت العائلة على الاثر فى صف واحد ، وحكمت علي بوجوب الطاعة والنزول على أمر النبي سليمان بدون تردد .

ورضخت للحكم ، وأنا نصف مؤمن بصحة هذه النبوة ، وشرعت احفر ، وشرعت البنات وامهن بنقل التراب الى جانب آخر من البيت ، ومازلنا نعمل حتى داهمنا الليـــل ، وشل ايدينا التعب ، فارجأنا اتمام الحفر الى اليوم التالي ، وأوينا الى مضاجعنا ونحن في غاية الضعف والانحلال .

وفيما يقرب من منتصف الليل ، فزت العائلة جميعها مرعوبة فزعة ، على صوت دوّى فى جميع الاذان ، وإذا بسحابة من الغبار والتراب تتعالى من بيتنا ، وإذا بجانب من دارنا وهو مطبخ البيت قد انهار على اثر تلك الحفرة التي عملنا فيها طول النهار بحثاً عن الكنز الذي دلنا عليه النبي سليمان عليه السلام ، فكان ان خسرنا عقلنا وخسرنا بيتنا ؟

بعد السبعين

كنت اسكن احدى الغرف ، باحدى المدارس الدينية ، يوم كنت ادرس العلوم العربية فى النجف ، وكانت الى جانب غرفتي من اليمين غرفة يسكنها شيخ يفن قد احنت ظهره السنون حتى صعب عليه ان يرفع رأسه ، ولم يكن يهمني من امره شيء بادىء الامر ، فكنت اجتاز الممر الذي يصل غرفته بغرفتي فى كل يوم اربع مرات أو اكثر دون ان اعيره التفاتاً ، ودون أن تبدر مني بادرة من بوادر حسن الجوار ، ولربما بخلت عليه حتى بالسلام المتعارف بين الزملاء ، وطلاب العلم ، وان لم يكونوا أبناء صف واحد ، وفي رتبة واحدة ، ولعل لاختلاف السن بعض الاثر في هذا الشموخ أو التعالي مني ، فقد كنت يومذاك شاباً لم اتجاوز الثامنة عشرة ، وكان هو شيخاً لم يقل عن السبعين ، أضف الى هذا اني كنت احضر درس (المطوّل)

حينذاك ، اما هو فقد كان لم يزل يقرأ (السيوطي) على طريقة الاجانب ، ثم ان لغته لم تكن من الطلاقة بحيث يسهل التفاهم بيني وبينه ، لأنه كان اعجمياً ، وكان مبتدئاً في الدرس ، وحديث عهد بتعلم اللغة العربية .

ولكن الفضول ما لبث أن عمل عمله في نفسي ، ورحت اسأل عن الاسباب التي تحمل هذا الرجل في مثل هذه السن على تعلم اللغة العربية ، والولوج منها الى دراسة الدين ، والتفقه فيه بعد أن أشرف على النهايه ؟...

ترى ما الذي يبتغيه من هذه الدراسة ؟ وهو في سن احوج ما يكون فيها الى من يأخذ بيده ، ويعينه على أمر دنياه ، ويمهد له راحة البال ، وهدو الخاطر ؟ وعلى اني سألت نفسي غير مرة مثل هذه الأسئلة فانه لم يتغير مني الحال ، فكنت امر على باب غرفته وانا في طريقي الى غرفتي دون سلام ودون كلام ، فقد كانت عنايتي بزيي ، وهندامي ، وأناقتي ، تفوق أي أمر آخر من امور الحياة ، شأني شأن أغلب الشبان في مختلف العصور .

وفى ذات ليلة ، وانا منحن على كتابي أعد درس الصباح استرعى انتباهي صوت من وراء الباب يناديني بلمكنة مستطابة الى سمعي قائلاً :

ـ يا شيخنا ... يا شيخنا ...

فقمت الى الباب وفتحته . وإذا بجاري الشيخ يخاطبني بشيء من الخجل وهو يطلب مني عوداً من الثقاب . . .

وكان هذا الطلب ـ بمثل ذلك الأدب والرقة ـ باعثاً على التعارف ، بل سبباً باعثاً على تحيته ، والسلام عليه كلما صرت أمر على باب غرفته ، وقد كنت اسمع منه رداً جميلا ، وأرى منه احتراماً اكثر مما أستحق ، ثم إذا بي انجذب اليه ، وأحنو عليه ، وأبالغ في احترامه والتقرب منه ...

ويجيئني ذات يوم ، هو وزميل له في الدرس ، متنازعين في مسألة نحوية ، فلم أر فرحة تعادل فرحة هذا الشيخ ، حين عرف انه كان على صواب فيما رأى ، وان الخطأ كان من حظ رفيقه فيما ذهب ، والتقاني فى اليوم الثاني وقد تملكته الفرحة اضعاف ما فعلت فى اليـــوم الاول ، واخبرني انزميله لم يقبل

بتحكيمي ، وانه رجع الى حكم آخر في تلك المسألة النحوية نخطىء مرة أخرى ، وصدر الحكم في جانب الشيخ بدون أقل زيادة و نقصان . . .

* * *

عجيب أمر هذا الشيخ ...!! انه كان يلتذ بهذه الدروس العويصة الغريبة عليه كما يلتذ أحدنا بتحقيق حلم من احلامه ، أو تسكين ألم من آلامه ، بل كان يرى فى انكبابه على الدرس وهو بهذه السن ضرباً من ضروب تهدئة الخاطر ، وملاذاً روحياً يجد فيه الراحة من ألم ممض دفين ، وإلا فأين هو ودرس الصرف والنحو من لغة لم يكن يعرف عنها شيئاً يوم أقبل عليها ؟ . . .

* * *

واشتدت هنالك اواصر التعارف بيني وبين الشيخ ، وبدأت احس بشيء اكثر من الشفقة نحوه ، ولكني كنت لم أزل اجهل سره ، حتى جاءني ذات يوم والدمع يسح من عينيه وبيده كتاب تناوله من البريد فى تلك الساعة ما لبثت حتى

شعرت بأن سبب بكائه انما انبعث من هذا الكتاب الذي يحمله، فرحت ألاطفه، وأخفف من لوعته وإن لم اكن اعرف شيئاً من أمره بعد . . . ولكن الصدمة كانت شديدة، وانفجاره كان عنيفاً . . . ولست اعرف شيئاً امض من دمعة الشيوخ في القلوب، ولا احرق من عبراتهم للنفوس، فكدت أنفجر أنا الآخر باكياً لا لشيء إلا لأني أرى شيخاً مسناً يبكي ...

وحين ألححت في سؤالي عن الخبر، وحين هدأت نفسه بعض الهدوء قال :

- «لم اكن يا ولدي طالب علم من قبل، ولم تحدثني نفسي يوماً بأني سأضطر الى طلب العلم هرباً من نفسي، وانتجاعاً لراحة قلبي، فأنا لم أصل الى النجف إلا منذ سنتين، وكنت قبل ذلك اعيش بمدينة تبريز من آذربيجان، كنت أعيش عيشة لا اقول انها كانت رفيهة سعيدة، ولكنها كانت اقرب الى الرفاه والسعادة، فقد من الله علي بقطعة ارض ازرعها، ودار سكنى استكن بها، وعدد من المواشي التي كان يرعاها لنا الرعاة مع مواشي الناس على قرب منا .

وكنت راضياً ما دامت زوجتى في الوجود ، وما دام ولدي الوحيد يعيش مدللا في كنفنا ، حتى حم القضـــاء ، وتوفيت زوجتي ، وكبر ولدي وتسلم زمام الملك بيده ، وتزوج باحدى الفتيات ، هنالك فقط بدأت اشعر بظل السعادة يتقلص يوماً بعد يوم ، وساعة بعد ساعة .

* * *

واشهد ان كنتي قد عنيت بي في سنيها الاولى بعض العناية ، وسهرت على خدمتي بعض السهر ، ولـكن هذه العناية بدأت تقل على مرور الزمن ، وأصاب ولدي هو الآخر فتور في عنايته بي ، واهتمامه بأمري ، وان الشيخوخة كالماء الآسن الراكد لا يطيق المرء ان يمر به طويلا ، أو يجرع منه جرعة ما لم تـكن هناك ضرورة ، ولم يعد للضرورة محل بعد أن تولى ابني شؤون المزرعة والمواشي ، وأصبح هو الآمر الناهي .

* * *

وأشهد مرة أخرى ان الدلال هو الاول والآخر في هذه النتيجه المرة ، فلولا هذا الدلال الذي عومل به ابنى لكان اكثر

استقامة معي ، وأشد رأفة بي ، ولكن هكذا كان ، هكذا كان الامريا ولدي ، وأحسست بأني بدأت اثقل على ابني وزوجته ثم آل الامر الى السأم مني والشجار معي ، وأنا - كما ترى - شيخ قد تجاوزت سني السبعين ، وقد فلت العمل من يدي ، فلا انا بالذي يطيق اعتماد ذراعه فأستغني عن ولدي ، واخرج من من الدار لأتكفل امر نفسي بنفسي ، ولا أنا بالقادر على استرجاع ما املك من يد ابني الذي سيطر على كل ما كان تحت يدي ، حتى لقد ظهر الفرق يبين في السنوات الاخيرة بيني وبين ولدي في نوع المأكل والمشرب والملبس ، وتنكرت لي الدنيا ، وقست علي بحيث فقدت من اشكو اليه حالي ، أو الاصح اني كنت استنكف ان اشكو شيئاً الى احد ، وكنت ارجو ان تكون لولدي من العاطفة ما تسوقه هو الى معرفة الواجب ، ولكن طال أمد هذا الرجاء . . . لقد طال وعاطفة ولدي في سبات عميق .

* * *

وذات يوم وقد بلغ الذل مني مبلغه رأيتني اصرخ على

غير شعور بابني وزوجته ، واعنفها على اهمالها اياي ، فتقدم نحوي ولدي حينذاك ، ذلك الولد الذي افسدته أنا بالدلال ، وكان يتفجر غيظاً ، وفى تلك السورة من الغضب ، وبوقاحة قليلة النظير ، طلب مني ان اغادر بيته !! قائلا : ان شراستي قد نغصت عليه عيشه ، وان الشيوخ حين يبلغون ارذل العمر يستحيلون الى عوامل منغصة من هذر ، وتطفل ، وفضول ، وسوء أخلاق .

وهنا بكيت ... ـ قال الشيخ ـ ولكني عذرته ... وقلت: انها جذوة طيش لا تلبث أن تخمد ... وكان الامر كما قلت ، وسارت الاحوال بعد ذلك سيراً طبيعياً لحد ما ، وما مرت أيام حتى ألفيتني اضيق ذرعاً من جديد بنوع من السلوك الدال على منتهى الاهمال نحوي فبرمت ، ويبدو لي ان ولدي قد استساغ هذا النوع من التهديد حين طلب منى مغادرة بيته ، فعاد من جديد ليقف وقفته الاولى وبصوت الحانق الكريه طلب مني أن اترك بيته حالا وعلى جناح السرعة ...!!

وكنت قد ادخرت بعض النقود من أيام الرخاء فاستعنت بها ، واعتمدت على الله وخرجت من تبريز دون ان اخبر احداً

بقصدى حتى وصلت الى مدينة النجف .

ولقد وجدت في انكبابي على درس الفقه ملاذاً من مفعول ما منيت به من خيبة ، فرحت أمهد لنفسي السبيل بدرس المقدمات كأنني مولود جديد ، واجداً في ذلك سلوتي وعزائي فى فجيعتي من دنياي » .

***

وعاد الشيخ هنا منتحباً ... وراح يتم حديثه قائلا :

ـ ومنذ سنتين ، وانا اعيش عيش الكفاف بما يصل الي من طريق العلماء باسم مساعدة الطلاب وهي مساعدة ضئيلة تكاد لا تسد الحاجة ولا تغني من جوع . ومع ذلك قد كنت فى غاية السعادة لا لأنني قد بعدت عن ولدي وانما لما كنت اسمع عن ابني من اخبار سارة ، وحياة رضية هانئة ، فقد كانت كل امنيتي ان اكون عنه بعيداً ويكون هو سعيداً .

***

قلت ـ وهذا الكتاب الذي تحمله . . ؟

لقد عاد فبكى ... ثم قال :

ـ هذا اول كتاب اتلقاه من ولدي ، وقد عرف عنواني واهتدى الى مقري ومنزلي وهو يكتب لي يقول :

« اغفر لنا يا ابتي وعد الينا . . . فقد ظلمناك كثيراً ... وانا لنادمون كل الندم على ماسلف ، فتعال الينا . . تعال . . فما هنئت والله بعدك الحياة . . . » ؟

....

على من تدور الدوائر

إذا مررت بالصحن الشريف من حرم الامام علي (ع) قبيـــل الغروب من كل يوم ، استلفتت نظرك عشرات البسط المفروشة ، والعبايات الممتدة في واجهة القبلة ، والحصر المبسوطة وقد افترش الناس منها ما يكفيهم للقيام والقعود ، والركوع والسجود ، فاتصل البعض بالبعض حتى كان من هـذا الاتصال صف طويل تتبعه صفوف أخرى تضيق بهـا سعة الصحن على رحبها ، وقد جلست هذه الصفوف تنتظر حلول المغرب لـكي تقوم باداء الصلاة جماعة أو فرادى

وفي مكان بارز بين هذه الصفوف قد عكف شيخ على كتاب للادعية يتلو فيه دعاء المساء ، ويرتل أناشيد الاستغفار، وينزل كل خرزة من خرزات سبحته مشفوعة بالصلاة على النبي محمد

وآله الميامين حتى ينطلق صوت التكبيرة : (الله اكبر . . . الله اكبر) فيقوم الشيخ سلمان الى صلاة المغرب ، ويركع ويسجد ، ثم يركع ويسجد ، ويطيل الركوع والسجود ، ولا ينتهي الا ويكون جميع المصلين حتى البالغين في تأنيهم باداء الصلاة قد انتهوا من صلاتهم وفرغوا من تسبيحاتهم ، فيقوم حينذاك الشيخ سلمان محفوفاً بذلك الوقار الديني ويسير الى الحرم الشريف ليطوف بالضريح داعيــاً للناس بالتوفيق ، ومبتهلا الى الله ان يرزق الخلق الايمان ، ويزيد تمسكهم بالدين ثم يقفل راجعاً الى البيت .

وفي عرض الطريق يكون الشيخ سلمان قد مر على صديقه مجيد (التوتونجي) واشترى بالقرش المعين الذي لا يزيد ولا ينقص ، القدار المعين من التبغ الذي لا يزيد ولا ينقص ، ثم توجه الى داره مجتازاً تلك الطرق الضيقة ، والأزقة المظلمة ، مبدداً عنه الوحشة بالتراتيل والتسابيح :

« سبحان الله مالك الملك . . . سبحان الله رب السموات السبع . . . سبحان الله رب العزة والحمد » ويظل في تسبيحه

حتى يصل الى داره ، وحتى يطرق الباب :

- من . . ؟

- أنا . . .

وتقطع الزوجة عليه ورده وترتيله ، ثم يتفرغ الى بعض أحاديث البيت ، ولكنه سرعان ما يعود الى ورده كلما آنس فرصة ، وكلما عن له ان يقوم ، أو يقعد ، أو يقضي حاجة ، فهو فى سلسلة متصلة من العبادة ، وتقوى الله ، قام أم قعد ، وحين يهم بأن ينام ، أو يهم بأن يستيقظ .

والشيخ سلمان وان لم ينل من دنياه غير الكفاف ، فقد عاش قانعاً ، راضياً ، لم يعكر عليه صفوه إلا انه قد بلغ الستين من العمر ولم يوفق لزيارة (الكاظمين) ، وكان يخشى ان ترافقه هذه الحسرة فيبلغ أجله دون أن يتسنى له تحقيق هذه الأمنية ، وكيف ترجو للشيخ سلمان ان يزور الكاظمين والزيارة لم تكن يومذاك بهذه السهولة من حيث وسائط النقل وأمن الطريق ! ! ، ثم كيف ترجو له ان يزور ، وهو لا يدبر امر القرش الذي يبتاع به التبغ كل يوم إلا بالمشقة .

والشيخ سلمان يعتقد بنقصان الايمان عند كل مسلم لم يحظ بزيارة العتبات المقدسة ، فلا عجب اذا جعل زيارة (الكاظمين) نصب عينيه واعتبرها جزءاً متمماً لايمانه .

* * *

وفي ذات يوم ، وقف الشيخ سلمان على مجيد التوتونجي يطلب منه ان يعد له من التبغ ما يكفي لعشرين يوماً . . . ويرجو من مجيد ان يعنى له باختيار أجود باقات التبغ لأنه قد أزمع النية على زيارة الكاظمين . . .

قال مجيد :

- ولكنك غير قادر على تنفيذ هذا العزم على ما اعهد ؟

قال الشيخ سلمان :

- ولكني قدرت أخيراً ، وجاءني الرزق من حيث لا احتسب ، فالشكر لله على كرمه ومننه .

ومرت كلمات الدعاء والتسبيح من بين شفتيه ، رتيبة ، عذبة ، حلوة .

* * *

لقد سر هذا الايمان مجيداً ، وسرته هذه الوداعة والطهارة المرتسمة على وجـــه الشيخ سلمان والمتدفقة من بين شفتيه ، والنامة عليها كل جوارحه وسماته ، وتذكر انه هو الآخر لم يسبق له أن زار الـكاظمين ، فلماذا لا ينتهز هـــذه الفرصة ؟ ويغتنم صحبة هذا الشيخ فيزمع السفر ، وينوي القربة في زيارة الامام ؟ ولماذا لا يعرض هذه الرغبة على الشيخ ويستأذنه بالسفر معاً ؟ خصوصاً وانه يملك مقداراً كافياً لسد الحاجة... فقال:

- عمي الشيخ سلمان ... ماذا تقـول لو تم لي التوفيـــق فزرت برفقتك الامام الـكاظم ؟

فأجاب الشيخ :

- لا مانع هنالك يا ولدي

واخرج مجيد المقدار اللازم من النقود ودفع به الى الشيخ على سبيل الوديعة ، وهيأ منذ تلك الساعة لوازمـه للسفر مع الشيخ .

ودخلت جارة للشيخ سلمان داره وامرأته تقطع اللحم والبصل لتعمل لزوجها المتاع اللازم فقالت :

- بالخير يا أم محمد . . . عسى ان لا يكون الضيوف قد اثقلوا كاهلكم ؟

قالت - كلا ... وانما الشيخ سلمان يزور الكاظمين ، وانا اعد له المتاع اللازم .

وهلت الجارة ... واطلقتها (هلهلة) رنانـــة من اصفى (هلاهل) الافراح ... ولماذا لا تهلل؟ ولماذا لا تطلق(الهلهلة) أثر (الهلهلة) وهي تبحث منذ ستة شهور عن الشخص الذي تستطيع ان ترسل ولدها الشاب معه لزيارة الكاظمين ، فقـــد كانت قد نذرت إن منّ الله عليها بولد وبلغ السنة السادسةعشرة لتبعثن به الى زيارة (الكاظمين) ، وها هو ذا ولدها قد اكمل السادسة عشرة منذ ستة شهور ، وهاهو ذا جارها التقي الورع يزمع النية على السفر ، فمن احسن من الشيخ سلمان رقيباً على ابنها ؟ ومن هو اكثر شفقة وعطفاً منه على جيرانه ؟

وعرضت فكرتها على الشيخ سلمان فوافق ، وسار الثلاثة على بركات الله ، يحدوهم ايمان الشيخ ، وتراتيله ، وادعيته ، لقد ساروا ولم يدروا أمر عليهم يوم أم اسبوع ، ام اكثر

لشدة شغفهم ، وسلامة طريقهم ، وحسن تمتعهم بالمناظر الخلابة ولـكنهم علموا بانهم قد اجتازوا (المحمودية) وان بينهم وبين بغداد ليس إلا ساعات قليلة سيقطعونها في هـذا الليل ، فلن يحل الظهر من الغد إلا وهم عند ضريح الامامين يؤدون فريضة الظهر الواجبة ، وصلاة (الزيارة) المستحبة ، ولـكن سوء الصدف أبى إلا ان ينكد عيشهم ، فساق لهم جماعة من قطاع الطرق فى ذلك الليل المدلهم فسلبوهم ما كانوا يحملون من زاد وما كانوا يسخرون من راحلة ، ولم يتركوا لهم غير الالبسة التي وهبها اللصوص اكراماً للشيخ الفقيه الزاهد ، وهم على مسافة قصيرة من بغداد .

وجلس الشيخ سلمان يسأل مجيد التوتونجي :

- ما الذي يجب ان نعمل يا مجيد ؟

قال مجيد - كل الذي تراه انت ...

- ولـكنني لا اعرف في بغـداد من استطيع ان استقرض منه مبلغاً ، فهل تعرف انت احداً ؟

قال مجيد - ومن اين لي ان اعرف احداً وأنا لم أر بغداد من قبل ؟

فاطرق الشيخ سلمان برهة ثم قال :

- علينا ان نتم رحلتنا مشياً الى الكاظمين ما دام اللصوص لم يتركوا لنا شيئاً ، ثم ليكن بعد ذلك ما يكون فنحن وما نحس من تدبير ...

واصبح الصباح فبانت مشاهد بغداد ، والى جانب شعورهم بالتعب وما ترك الخوف على نفوسهم من اثر بدأوا يشعرون بالجوع ، فقال الشاب :

- لقد جعت . . يا عمي

وقال الشيخ - لنا رب لا يجوع ، وما هي إلا جولة حتى ينتهي كل شيء . . .

فآمن الرفيقان بقدسية الشيخ سلمان مرة اخرى ، وامتلآ ثقة بأنهما سيشبعان ببركة هذا الشيخ وتقواه ، وان الله مرسل اليهما من يطعمهما ، ومن يأويهما ، اكراماً لهذا الشيخ المتفاني فى حبه ، والذي لم يفتر لسانه عن ذكره طول عمره .

* * *

واقبلوا على الشارع العـــام ، فوقف الشيخ سلمان

واستوقف رفيقيه وقال :

- أتريان صاحب مطعم الكباب ؟ ذلك الذي وقف يقطع اللحم ويعد النار للشواء ؟

قالا - نعم . . .

قال - ارقباني : فاذا علمتما بأني ساومته وفرغت من حديثي معه ، ودخلت مطعمه ، فلتأتيا اليه ، ولتطلبا منـــه ان يعد لكما المقدار الكافي من الخبز واللحم ، ولتدخلا المطعم كمن لم يكن لكما بي سابق معرفة ، ولنجلس نحن الثلاثة الى مائدة هذا (الكبابي) كأنني لااعرفكما ، وكأنكما لا تعرفانني ؟

قالا - والنتيجة . . . ؟

قال - ان النتيجة لا يستطيع أن يقررها احد غير الله سبحانه وتعالى . . .

ووجم الرفيقان ، وتبادلا نظرات استغراب ، فلم يعرفا أهو جاد فيما قال أم هازل ؟ وقبل ان يفتح احدهما فمه بالسؤال أو الاستفسار والمناقشة ، مشى الشيخ سلمان بخطى ثقيلة ، وبوقار لا يعرف اصطناعه غير الشيوخ من امثاله ، وحين بلغ مطعم

الكباب وقف هنالك مصلياً على النبي ومسبحاً وهو يقرأ مزاج الكبابي وطبيعته بنظراته المصوبة له من اعلا قمة رأسه ، الى اخمص قدميه ، ثم سأل :

- ما اسمك الكريم . . ؟

قال - خادمك ، احمد الكبابجي . .

قال الشيخ - بارك الله لك بهذا الاسم الكريم ، فقد قال النبي صلى الله عليه وآله : خير الاسماء ما حمّد وعبّد ، وان لي عليك يا احمد حق النصيحة بصفتك مسلماً ، فأنا قريب عهد بالشفاء ، وقد برأت منذ قليل من مرض عضال ، وقاك الله شره ، ومتعك بالصحة والسلامة ، ولعل دور النقاهة ، كما قد تعلم يا (اسطه احمد) لا يقل خطورة عن دور المرض نفسه ، فيجب اختيار المأكول الذي يلائم هذا الدور ، ويتفق مع المزاج ، فهل تتفضل علي وتخبرني بما يوجد في المطعم المقابل لمطعمك هذا من غذاء يناسب ما انا فيه من حال ؟

قال احمد وقد القى بنظرة عبر السوق الى المطعم المقابل لدكانه وقال :

- ان فيه كلما تهوى وزيادة ، فيه الدجاج ، وفيه الرز ، وفيه الحساء ، وانواع من المرق ، كمرق الباذنجان ، والبامية ، واليقطين الذي يعتمده المرضاء غذاء على الأخص . . .

فمد الشيخ سلمان يده الى جيبه وأخرج سبحته (الحسينية) السوداء ومد خنصره الى خيطهـا فلفه به ، وبمسمع من احمد الكبابي قرأ الشيخ الورد التالي :

« اللهم صل على محمد وآل محمد ، عـبدك يستخيرك ويستشيرك ، يا من يعلم احد من لا يعلم ، يا من لا يغش من استنصحه حاشاك ان تغش من استنصحك ، هل من المصلحة اكل الدجاج لواحد مثلي ، يا الله . . . ؟ »

وبقبضة واحدة من الخرزات حصرها بين السبابة والابهام ، وهو يردد : يا علام الغيـوب يا الله ، ويفرد الخرزات زوجاً زوجاً ، ثم رفع رأسه وقال :

- ان الاستخارة لا تصح بأكل الدجاج ، فلننظر أمر الله في اليقطين :

«يا من يعلم احد من لا يعلم ، يا من لا يغش من استنصحه

حاشاك ان تغش من استنصحك يا الله . . . » وقبض على بعض الخرزات وحسبها ثم قال :

- وكذلك لم تصلح الاستخارة بأكل اليقطين . . .

وهكذا اتى على جميع الاطعمة مستخيراً الله عليها بسبحته فلم تصح استخارته .

وعاد الشيخ سلمان يسأل احمد (الكبابي) :

- ترى . . . وما الذي استطيع ان اجد عند ذلك البقال المجاور للمطعم المذكور ؟

قال احمد - عنده الزبدة ، وعنده المربى ، وعنده اللبن ، وعنده اصناف من التمر والحلوى والبيض المسلوق .

وفعل الشيخ سلمان مع كل هذه الاصناف ما فعل مع الاصناف المتقدمة ، واستخار الله على كل شيء من هذا فلم تصح الاستخارة ، فلينظر الشيخ إذن في امر الكباب :

يا علام الغيوب يا الله ، يا مرشد الضالين يا الله . . يا من عنده مفاتح الغيب . . أ اقدم على اكل الكباب . . ؟ فجاءت النتيجة ايجابيه ، وصحت الاستخارة بأكل الكباب ، وقال احمد :

- ليكن الخير في ذلك .. فقد يكون فيه الشفاء .

قال هذا وبدأ يعد شواء اللحم ، وانبعثت رائحة القتار تسيل اللعاب وتهيج الشهية .

وكان الرفيقان ينتظران دخول الشيخ الى مطعم الكبابي بفارغ الصبر ، حتى إذا رأياه يدخل اسرعا هما الآخران فساوما صاحب الكباب على المقدار اللازم لهما من الكباب ، ثم دخلا المطعم واقتعدا الى جانب الشيخ سلمان دون أن ينبسا ببنت شفة.

وجيء (بكباب) الشيخ أولاً ، ثم لم يمض قليل حتى جيء (بكباب) الرفيقين ، وقبيل الكف عن الأكل التفت (مجيد) يمنة ويسرة حتى إذا اطمأن من خلو المكان همس فى اذن الشيخ سلمان قائلا :

- اوشكت ان افرغ من الاكل فما الذي ينبغي أن اعمل أنا ؟ وماذا يجب ان يعمل الصبي ؟

قال - لا شيء غير الانكار ، وغير الادعاء بانكما قد دفعتما ثمن الكباب والله غفور رحيم !!

قال - والصراخ والشتائم ؟

قال - يجب ان يقابل بالصراخ والشتائم . . . ! !

قال - والهجوم ، والضرب ؟

قال - يجب ان يقابل بالهجوم والضرب ! ! فان صاح الكبابي بكما ، فصيحا به ، وان ضربكما فاضرباه ، ولتحسنا التمثيل ، ولتتقنا حكاية المظلوم الذي يدفع الثمن كاملا ثم يطالبونه بدفعه مرة اخرى ، وكونا عصبيين على قدر ما تستدعيه الاحوال ويقتضيه الظرف ، واياكما والضعف فان انكشفت الحقيقة فلا اظننا سنخرج سالمين من هنا .

والآن ، هيا ، واستعدا لمقابلة الاسطه احمد .

وتردد مجيد قليلا ، ثم رأى ان لا مناص من تقمص هذا الثوب ، وقد عجب كيف يستسيغ هذا الشيخ التقي ، الورع ، الزاهد اكل مال الناس على تلك الصورة ؟ وبماذا يعلل مثل هذا الاقدام ؟ وما الفرق بينه وبين قطاع الطريق الذين سلبوهم كلما يملكون بالأمس ؟...

وأخيراً ... وأخيراً وجد ان لا مناص من الاقدام على تنفيذ الخطة ، فأومأ للصبي قائلاً : إذا قمت انا من المطعم فاتبعني

واذا ما خرجت فاخرج معي ، وعليك بعد ذلك ان تقتدي بي في كل ما افعل ، قال هذا وقام يمسح يديه بمنديله ، وحين هم بأن يجتاز درب المطعم الى الخارج والصبي من خلفه استوقفه (احمد الكبابجي) مطالباً بثمن الكباب .. فرد عليه مجيد بدهشة وتعجب قائلا :

- إذن والمبلغ الذي تقاضيته منا الآن ؟

قال اسطه احمد - صل عالنبي ... اي مبلغ تعني ؟

قال الصبي - المبلغ الذي سلمه لك صاحبي ناقصاً ثم كملته لك انا من نقودي .

قال احمد - ارجو ان تعدا نقودكما لتتأكدا جيداً بأني لم اتناول قرشاً واحداً منكما.

قالا - (وهما يضحكان ضحكة المستهزىء الحانق) قالا : خير لك ان تعرف الناس جيداً قبل أن تقدم على اتهامهم ، فما نحن من الناس الذين تظن ...

قال - أي ظن ...؟ وأي ناس ... ؟ وأية معرفة ...؟ انكما لن تغادرا هذا المحل قبل أن تسلماني آخر فلس من قيمة الكباب .

وهنا كثر اللغط ، واشتد الصياح ، واجتمع الناس من كل حدب وصوب ، وفي هذه الاثناء فج الشيخ سلمان طريقه يريد الخروج ، واذا باسطه احمد يدنو من الشيخ في وسط تلك اللمة مستشهداً به وسائلا منه :

- انت ياعمي الشيخ ، هل رأيت هـذين الزنديقين قد دفعا لي شيئاً من ثمن الكباب ؟

فتنحنح الشيخ سلمان ، ثم سعل سعلة نحوية خاصة تدل على ان صاحبها رجل وقور متزن وقال :

- لا تشتم الزائرين يا سيدي ، فان زوار العتبـات لا يسرقون ، ولقد أعطياك ثمن الكباب في الآونة التي اعطيتك أنا الثمن تماماً ...!!

فصاح احمد من اعماق قلبه :

- وهل انت الآخر قد دفعت لي الثمن ؟

قال الشيخ - بلي... بلي يا اسطانا . . لقد دفعته لك كاملا غير منقوص فهل انت في شك من ذلك ؟

وصاح الناس باسطه احمد ان يكف عن معارضة (الزوار)

فليس من المعقول ان يشهد الشيخ مثل هذه الشهادة ما لم يكن قد دفع ثمن الكباب ، ومالم يكن قد شاهد الآخرين يدفعان الثمن ...

واقسم احمد باغلظ الايمان ، ولكن الشيخ سلمان صاح به:

- لاتحلف ايها الكذاب . لاتحلف .. فالله أسأل ان ينتقم منك شر الانتقام جزاء ما الحقت بنا من فضيحة في هذا اليوم

وهنا كان الجمع قد بدأ يرفض ، وقد بدأ صوت احمد الكبابي يسمع ، فصاح يخاطب الشيخ سلمان :

- لقد استشرت الله بالسبحة في اكل الدجاج والرز فلم تصلح الاستشارة ، واستخرته في اكل انواع المرق ، والزبد والعسل ، والتمر ، واللبن ، فلم تصلح الاستخارة ، ولست ادري لم قد صحت استشارتك ، واتفقت استخارتك ، على اكل الكباب والطرشي عندي ؟

* * *

وسأل مجيد الشيخ سلمان :

- عمي الشيخ سلمان ... الآن وقد نفذنا الامر كما اردنا وخرجنا من المطعم بأكلة شهية ممتعة بدون ثمن ، فهل لي أن اسألك عن الفرق بيننا وبين اولئك اللصوص الذين اعترضونا

في الطريق ، وسلبونا ما نملك ؟

قال الشيخ سلمان :

- انك احمق يا مجيد ... احمق بكل معنى الكلمة ، فالفرق بيننا وبين تلك الشرذمة كبير جداً ، ذلك لأن اولئك الذين قطعوا علينا الطريق لم يكونوا غير لصوص وقطاع طرق في عين الحقيقة ، وفي عرف الناس ، اما نحن فاننا اخيـــار في عرف المجتمع ، وإلا فأيـــة مزية لتلك الاوراد ، والتسبيحات ، والادعية التي لم نفتر عنها لحظة واحدة اذا لم تستطع أن تحجب عنا التهمه ؟

قال مجيد - واسطه احمد ؟

قال الشيخ - اما اسطه احمد ، ومن كان على نسقه ، فهو المركز الذي تدور عليه الدوائر ، في جميع الاحوال ! ! ؟

طريق الدير

لم يكن لي بالمعلم حنا سابق معرفة ، ولم اكن قد سمعت باسمه يوم دق جرس التلفون فى مكتب جريدتي ، فاذا بصوت ذى جرس موزون ، ينم عن أدب وحشمة يقول :

ـ أبامكاني أن أراك لبضع دقائق ؟

قلت ـ ولم لا يا سيدي . . . فلتكن بضع ساعات وليس بضع دقائق .

وبعد ما يقرب من نصف ساعة كان الرجل في مكتب الجريدة ، وهو رجل في العقد الرابع ، معتدل القامة ، وله من ملامح الوجه والبشرة وعذوبة الحديث ، ما يجعله خفيف الظل ، ان لم يجعله محبوباً لدى عارفيه .

قال ـ وهو يعتذر عن تناول السيكارة قال : انني لا ادخن ولا اشرب الخمرة ، وليس لي بالمنبهات كالشاي والقهوة هوى

أو رغبة . . ! ! ولكن هل باستطاعتي ان آخذ حريتي التامة دون أن يستطيع أحد أن يقطع علي سلسلة الحديث ؟

قلت : - بكل تأكيد . . .

وناديت الفراش أن يغلق الباب المتصل بمكتب المحررين ، وحين تهيأ له ما كان يريد من جو ملائم قال :

- دعني ألج بك الموضوع رأساً وبدون مقـــدمات ، وأطوي من ماضي ما ليس له علاقة بالموضوع ، وحسبك أن تعرف ان اسمي حنا ، وانني أعمل معلماً في احدى المدارس الأهلية ، وقد تزوجت منـــذ ثلاث عشرة سنة بأمرأة لم انكر عليها شيئاً ، ولم أر ما يستوجب التنكر لهـــا على رغم اختلافنا فى كثير من الشؤون والأذواق والمشارب ، وعلى رغم كوني لم أجد فيها النصف الكامل المنشود .

وأنا رجل مسيحي يتاح لي أن أرى وجوهاً متعددة ، وصوراً مختلفة لسيدات وآنسات ، اكثر مما يتاح للمسلم أن يرى بمقتضى بيئتينا المختلفتين ، فكنت احشر بين عدد كبير من الحسان في عدد كبير من المناسبات ، كأوقات الصلاة في

الكنائس ، وحفلات الأعياد والأفراح في البيوت ، والسفر والرحلات في أوقات الفراغ ، وأنا اعرف لنفسي ذوقاً استطيع بمقتضاه ان اعطي كثيراً من الأشياء كالجمال ، والأدب ، والأخلاق ، وحسن التصرف في الحياة ، حقها من الاعجاب ، والتجلة ، والتقديس ، فلم أر في هذه السنوات - أي السنوات الثلاث عشرة التي قضيتها مع زوجتي - من تجاوز اعجابي بها الحد المعقول لكي تأسر قلبي ، وتملك نفسي ، وتتصرف بي تصرف المالك ، لا لأن زوجتي كانت اجمل منهن ، وأسمى خلقاً من اخلاقهن ، وا كثر جاذبية لي من جاذبيتهن ، بل طالما وجدت بين من عرفت من السيدات والآنسات من كانت أقرب الى نفسي من زوجتي ، وأدنى الى قلبي من حيث الجمال والروح والسحر وفهم الحياة ، وانما لأني كنت استطيع أن أفهم نفسي بأن هذه التي أعجبتني لا ينبغي أن يتجاوز اعجابي بها الحد اللازم ، وان ليس من حقي أن أفسح المجال لهذا الاعجاب الى أن يتحول الى تعلق بها ، وحب لها ، وهيام فيها ، ولعل للبيئة التي ولدت فيها ، والنشأة التي نشأت عليها شأناً فيما فطرت

عليه من خلق ، وما جبلت عليه من سلوك .

ولهذا السبب، ولأسباب أخرى يتوقى الرجل الحق - والرجل المتزوج على الأخص - مزالق الحب ، واضعاً لنفسه حداً لا يتجاوزه ، سواء اقتضت الدواعي أم لم تقتض .

وأريد أن اختصر لك القول ، واخبرك بايجاز بأني لم أحب - بمعنى الحب الصحيح - طوال هذه السنين امرأة على رغم اعجابي بالعدد الكثير من النساء اللاتي عرفتهن لأنني كنت مالكاً لنفسي ، متثبتاً فى خطواتي ، عارفاً بموضعي من حياتي ودنياي .

ونزل قبل سنتين بجوارنا رجل هو الآخر كان مسيحياً مثلنا ، وكان العرف يقتضينا بأن نزوره فزرناه . فكانت هنالك الطامة الكبرى ، فهذه أول مرة تقع عيناي فيها على امرأة فلا أطيق أن احول نظراتي عنها ! !

ها أنذا اشعر بارتياح يغمر كل وجودي حين أراها قائمة وحين ارنو اليها قاعدة ، وحين اتأملها مقبلة ومدبرة وقد بدأت احس بضربات قلبي تزداد كلما هممت ان اقول شيئاً فى محضرها

ولا اكاد اسمعها تتحدث حتى يستحيل كل وجودي الى آذان تنفذ منها كلماتها الى اعماق احاسيسي وتنقش هنالك على لوحة القلب كما تنقش الآيات الربانية في صدور الرهبان والقديسين الصالحين . . . ! !

ولا تكاد السيدة تخطر فى حاجة من الحاجات التي تقتضيها واجبات استقبال الضيوف حتى تروح عيني عاكسة لكل خطرة من تلك الخطرات الف صورة وصورة من الصور التي احسن باريها تصويرها ، وتنسيقها ، واخراجها ، كآية من آيات الجمال والكمال ...

ولقد أحسست لأول مرة بأن المبادىء التي أدين بها ، والمنطق الذي ألوذ به ، والذي طالما لذت به فيما مضى قد بدأ ينهار ! ! واني كنت مخدوعاً حين ظننت بأن المرء قادر على أن يقف حيث اراد في كل امر من الامور ، وعند كل مسألة من المسائل ، ولم اقدر ان من العواصف ما تقلع الاشجار ، وتهدم البيوت ، وتجعل عالي المباني سافلها . . .

وفى مناسبات أخرى ، حين أولمنا لجارنا هذا وليمة الترحيب

المعتادة بمناسبة نزولهم في جوارنا ، وحين كنا نرد لهم زياراتهم بمثلها ، ادركت تماماً انني أمام تيار قوي لا يمكن صده بأي وجه من الوجوه .

ولا تسلني عما تملكني من هذه المرأة ، فان الذي يحب - كما قالت لي التجربة - والذي يغلب الحب على امره لم يعد يفكر في شيء دون شيء ، ويكفي ان تعرف انها كانت امرأة ساحرة ، وانني لمست سحرها هذا في وجهها ، وفي قوامها ، وفي حركاتها ، وفي احاديثها ، وفي ذلك الخلق الجذاب الباهر .

واعتقدت جازماً بأنى قد وجدت في جارتي هذه نصفي المفقود ، وان اللاتي رأيتهن من قبل لم يكن غير نساء كثر نظائرهن بين النساء من حيث التكوين الجسمي والروحي ، لذلك كان من الهين التغلب على النفس وصدها ، إما هممت بتجاوز حدودها ، أو حاولت تخطي السياج ، اما هـــذه المرأة فقد أصبح منطقي مفلوجاً معها ، ووقعت المشكلة التي ما كان ينبغي أن تقع .

وجارتي ربة زوج وربة أطفال ، وزوجها يحبها كثيراً ،

وأنا رب زوجة ورب اطفال ، وإذا لم اكره زوجتي فلست واجداً فيها المرأة التي أريد، وإذا كان الحب قد أعمى عيني وأصم أذني فانه لم ينسني اني مسيحي ، وانها مسيحية، وانها لو بادلتني الحب لما تم لنا الطلاق من زوجينا والزواج من بعضنا ... وان مثل هذا الحب ليس إلا اللعب بالنار بعينه .

كل هذا قد مر على بالي ، ومر معه حديث الآلاف من ضحايا الحب العذرى ، اولئك الذين سحقوا قلوبهم ، وطوحوا بأنفسهم عرض البراري والوديان ، وقتلوا في نفوسهم هواها فراحوا ضحايا على مذابح الحب ، وقلت لم ؟ لم لا اكون واحداً من هؤلاء ، فأقتل حبي في قلبي ، وادفنه في احدى زواياه ؟ مقتدياً بالذين اذاقهم الحب الفاشل ألواناً من العذاب وضروباً من الشقاء .

• • •

وجربت ، فقد ضيعت وجهي عن جارنا وزوجته أياماً كانت على قصرها طويلة طويلة ، فزاد عذابي ، واتصل ليلي بنهاري ، وفقدت توازني في سيري وفي عملي ، واحس بهذا

الفقدان زملائي وتلامذتي ، ولكنهم لم يعرفوا سر هـــذا الذهول والشرود ، وكانت لي ذخيرة جد كبيرة من المواعظ والامثال ، والحكم ،وقد أتيت عليها كلها انفاقاً لتهدئة نفسي، وكان الكبت وكان الكتمان عاملين آخرين من عوامل الشقاء ، واندلاع نيران الحب من جديد في نفسي .

ولمست اخفاقي بيدي ، وعلمت بأنني غير قادر على تحويل هواي عنها ، وغير مستطيع من تناسيها ، فعدت أزور جاري لكى أراها ، وكان عتاب منها ومن زوجها ، وكان لوم ما بعده لوم على هذه القطيعة ، ولكني كنت أعرف كيف اعتذر .

واذا كان هنالك شيء قد ظل كما ينبغي أن يظل فهو انى كنت احسن المحافظة على السيرة الطبيعيه بالرغم مما كنت اكابد في اعماق نفسي ، فلا اتصورني إلا وأنا طبعي في حركاتي ، واعتيادي في احاديثي عندما يكون الجار وزوجته عندنا ، أو اكون أنا وزوجتي عنده ، أو حين نلتقي في الدعوات ، أو ألتقيها وحدي .

أجل ، لقد ظل كل شيء اعتيادياً ، لذلك ليس من المستبعد

ان تجهل هذه السيدة حبي لها ومدى هذا الحب ، وتفانى فيها ومبلغ هذا التفاني ، وكلما يمكن ان تعرف هو انني معجب بها كامرأة مكتملة الانوثة .

• • •

وضقت ذرعاً بنفسي ، وطالت الليالي التي أحييتها بالسهد متقلباً على فراشي اعاني عذاب الحب ، وأحسب انك تقدرمدى هذا العـــذاب ونفوذه في القلب ، اذا ما أحببت حباً صحيحاً متزناً وقد حتم عليك الواجب أن تكون كتوماً ، وان يكون حبك مكبوتاً في صدرك زمناً طويلاً مراعاة للخلق ، والدين ، والأدب الذي يحتم عليك ذلك .

وأنت - قال المعلم حنا - تقدر مدى هـذا العذاب مما يمر عليك من مقالات ، وكتب ، واستشارات يبعث بهـــا اليك القراء ، والتي اعتدت ان تجيب عليهـــا على صفحة الجريدة ، وقد رأيت أن انفس عن نفسي ببسط حالي اليك ، واستعين بك على معالجة هذه النفس ، وأنا أرجو ان يكون سري عندك محفوظاً كما لو كان في صندوق مقفل من الحديد ،

فما الذي ترى ؟ وما الذي تقـــول ؟

* * *

وأطرقت برهة ثم رفعت رأسي وقلت : انه من المكابرة يا سيدي لو زعمت بأني قادر على أن اضيف شيئاً على ما مر ، وكل ما عندي هو اني أؤيدك كل التأييد في ان الحل لمثل هـذه المشكلة قائم على التناسي والابتعـاد ، حتى ولو أدى ذلك ان تهجر بيتك ، وان تنقل عملك الى بلد آخر ، وان تتجاهل نفسك لمدة من الزمان ...

قال ـ اذن فأنت ترى الحل كله في تجاهل وجودي ؟

قلت ـ بالضبط ...

فقام وهو يضغط على يدي مودعاً وخرج .

* * *

ومرت سنة لم انس أن اسأل عن المعلم حنا كلما عرضت لي مناسبة ، ولكني لم اعرف عنه شيئاً ، وفي ذات ليلة ضمنا مجلس سمر في بيت صديق جديد من المسيحيين لم يسبق لي أن دخلت بيته من قبل ، وقد وجدت في زوجته امرأة جذابة

لطيفة تضفي على الحديث شيئاً غير قليل من الطلاوة ، فضلا عما تتمتع به من جمال قد لا يكون قليلا ، وكانت غرفة الاستقبال مزدانة بطائفة من الصور الفنية بينها صورة زيتية فخمة لدير يحكي قلعة منيعة من قلاع القرون الوسطى ، وقف عندها بعضنا من السيدات والرجال وقفة طويلة ، وقد استدعى تداعي الأفكار لأن ينتقل الحديث من الصورة الى الرهبنة في المسيحية ، والتصوف فى الاسلام ، فعلق البعض محبذاً ، وعلق البعض الآخر مستهجناً ، وعلى رغم اختلاف الطائفتين فقد اتفقتا معاً في استهجان الذين ينزوون عن الناس ، ويتركون الدنيا لمجرد حبهم الانكماش على النفس .

وقالت صاحبة البيت ، قالت : وكان من هؤلاء جار لنا باسم المعلم حنا ، فقد دخل الدير منذ اكثر من بضعة شهور مترهباً وعاف اهله ، وعاف اولاده ، ولم يكن هنالك سبب إلا انه كان يريد ان يبتعد عن الناس ، فضاعت معه توسلات اهله ، وتوسلات زوجي ، وتوسلاتي أنا التي كنت احترمه كثيراً واحبه كرجل كريم على جانب كبير من دماثة الخلق ، فلم تجد

معه التوسلات ، ولم يفد معه الكلام ، بل لزم طريق الدير ، ومشى اليه مشية المكلوم الفجيع ، وليس هنالك ما يقتضي ذلك أو بعض ذلك ، وبخل على اهله وعلينا جميعاً حتى بالزيارة المألوفة !! ؟

كلبنا جيمي

في صباح يوم من أيام الربيع وقفت احدى السيارات الخصوصية عند باب الحديقة ونزل منها السائق ، وهو يحمل جرواً ، ولم يلبث ان ضغط على الزر ، وحين فتح الباب قال :

ـ هذا هو الكلب الذي طلبتموه منا منذ سنة ، فلم يتسن الحصول عليه إلا اليوم.. ثم أضاف قائلا: انه كلب (اسكوجي) ولد في اليوم الرابع والعشرين من كانون الثاني ١٩٥٥ واسمه (فلور) .

وكان حقاً جرواً جميلا ، يدل بريق عينيه على ذكاء حاد ، وتدل حركاته والتفاتاته السريعة على طبيعة من المرح المتأصل في مثل هذه الفصيلة من الكلاب .

وأجمع الاطفال على تبديل اسم هذا الجرو وقالوا ان اسمه سيكون (جيمي) بعد اليوم ، فلقد كان لهم ـ قبل سنتين ـ

كلب نادر الوجود يدعى (جيمي) احبوه كثيراً وكان أهلا للحب ، وقد اغتاظ ذات يوم فأضرب عن الاكل ثم هرب قافلا الى صاحبه الذي اهـــداه الينا بعد أن خلف في نفوس الاطفال حنيناً متواصلا الى رؤيته ! !

وقالت بنتي الـكبيرة ، ان جيمي العزيز لا ينبغي ان يخلفه إلا جيمي آخر مثله . . وهذا ما نتوقع ان يكونه ، وقام الاطفال الى لوحة هناك فكتبوا تأريخ ولادته ، وطلبوا مني ان أؤرخه ببيت من الشعر كما يفعل المؤرخون والادباء حين يؤرخون الحوادث ذات الشأن ، ولـكي ادخل على نفوسهم السرور ، واماشي رغباتهم ، تظاهرت بالتفكير ثم تلوت عليهم البيت التالي :

ان قيل من اوفى احبتكم
أرخت « اوفاهم لنا جيمي »

وقالت ابنتي : وهل حساب هذا التاريخ مضبوط ؟ وهل انني لو تعلمت كيف يجرى حسابه وحسبته حصلت على تأريخ ميلاد (جيمي) ؟

قلت - بالضبط . . فلا حاجة لأن تتعلمي كيفية حسابه ، بل يكفي ان تحفظي هـذا البيت ليعرف الجميع ان جيمي من مواليد سنة ١٩٥٥ وانه ولد في اليوم الرابع والعشرين من كانون الثاني بدون أقل زيادة أو نقصان ! !

وحفظ الجميع هـذا البيت ، وقنعوا بصحة تأريخ السنة وتأريخ اليـــوم ، وأسرعوا يعنون بتربية جيمي وتنشئته ، ويحتفون به ، وقد علق به كل سكان الدار ، وسكان المحلة ، وشب وشبت معه مواهب اصبحت حديث الجميع وموضوع تندرهم ، فهو كثيراً ما يطرق باب الدار لينبه اهله الى ما نسوه في الحديقة من الألبسة ، أو الاواني ، أو أي شيء يكون بامكانه حمله الى الباب لتسليمه اليهم ! !

وكان كثيراً ما يتعهد ارجاع الدجاج الى القن ، إذا ما أغفل أهل البيت احكام باب القن وتركوه مفتوحاً على مصراعيه ، ثم هو بعد ذلك أنيق في مأكله ، ومشربه ، ومنامه ، انه لا يأكل إلا ما يجزم بجودته من حيث الطهو ، والرائحة ، ولا ينام إلا فوق فراش نظيف اعتاد ان يخرجه بنفسه من بيته الى خارج

البيت ويفترشه إن عن له أن يجلس خارجاً ، ثم يحمل فراشه الى الداخل إن اراد أن ينام أو يختبىء في مسكنه .

وقد مرض ذات يوم فحمل الى المستشفى ليقضي فيه اسبوعاً، وحين عاد القى بنفسه تحت أقدام أهل البيت والجيران باكياً ممرغاً خديه بين أرجلهم ولم نكن نعرف ان الكلب يبكي أو ممن تظهر عليه اعراض البكاء إلا في هذا اليوم .

ومرت على جيمي بضعة شهور كان قد اشتهر بعدد كبير من المزايا بين عدد كبير ممن رأوه وعرفوه ، عن بعد ، أو كثب وحببت هذه المزايا للبعض الاقدام على سرقته فسرقوه ، وحزن الاطفال ،وحزن الجيران ، وحزن المعارف عليه ايما حزن ، وراحت كل المحاولات لمعرفة مأواه ومعرفة كيفية سرقته عبثاً وعم الجميع اليأس لا سيما وقد مرت أيام طويلة على ذلك ولم يهتد احد الى خبره . . .

وذات ليلة وفي نحو الساعة الثانية والنصف بعد منتصف الليل استيقظ بعض النائمين على صوت الباب يطرق طرقاً عنيفاً بطريقة الهز والنطاح والضرب بالكف ، وحين فتح الباب

وجد جيمي يحاول أن يلقي بنفسه بين رجلي فاتحي الباب ، ويهم بأن يدخل الدار فى تلك الليلة ليبكي عند كل واحد وليقبل منه رجليه ، ولكننا تركناه في الحديقة ، وما كاد يصبح الصباح ويفتح باب البيت حتى يقفز جيمي فيلقي بنفسه في وسط البيت واذا به يفعل ما فعل عند عودته من المستشفى وأكثر ! !

حتى الجيران قد عرفوا جيمي واحبوه ، وعرفهم جيمي وأحبهم ، انهم يسألون عنه بلهفة كما يسألون عن عزيز من الاعزاء ، فهو (كتلة) من عواطف تجاوزت رقتها الحدود وخرجت به عن طبيعة الكلاب الى طبيعة انسانية سامية فى أسمى درجات الصفاء ! !

وفي شهر كانون الثاني من هذه السنة ١٩٥٦ بدأ الاطفال يرددون تأريخ (جيمي) فى البيت المذكور :

ان قيل من أوفى أحبتكم
أرخت « أوفاهم لنا جيمي »

وقالوا : أليس هذا البيت دليلاً على أن جيمي قد ولد

بتاريخ ٢٤ كانون الثاني من سنة ١٩٥٥ ؟

قلت - بلى

قالوا - فلم لا نحتفل بعيد ميلاده الأول ؟

قلت - ليكن ذلك . .

واحتفل الاطفال بعيد ميلاد جيمي ، وجيء له بشمعة واحدة اطفيت بدلا عنه ، وكان احتفالا رائعاً بالنسبة لكلب ، وبالنسبة للهو الذي يلهو به الاطفال .

وشارك أولاد الجيران أولادنا في هـذا الاحتفال ، بل واشترك معهم عدد غير قليل من كبارنا وكبارهم ، وقدموا لجيمي هدايا نفيسة من قلائد ، وأواني للاكل والشرب، وشيء غير قليل من البسكويت والشكولاته ، وقد اقترح المقترحون منهم ان يسجلوا ذكرى هذا اليوم التأريخي من حياة (جيمي) الذكي المحبوب ، في صورة فوتوغرافية تجمع بين المحتفلين وجيمي حول المائدة ،وقد تدافع الحاضرون وتزاحموا ،وشرعوا يبحثون عن الطريقة التي تجعلهم أقرب الى الكلب في مجلسه عند التقاط الصور ، ولكي يكون الجميع محظوظين ، ناعمين

بهذه اللذة اقترحوا أن تتعدد الصور لكي يظهر كل جمع مع الكلب فلا يستأثر به احد دون سواه .

واتصل حديث الاحتفال بجيمي بالاصدقاء والمعارف ، واتسع مجال التندر ، ورويت عن هذا الكلب ومزاياه روايات كثيرة اختلط فيه الكذب بالصدق فلم يعد بامكان أحد ان يميز بين الحقيقة والخيال .

ومرت أيام... وكلما مر يوم حلا كلبنا فى عيون عارفيه ، وزاد اعجابهم به ، وكأن جيمى كان يعرف مقامه عند كل طائفة منهم فكان يمنح مودته لكل طائفة على قدر اعتزازها به ، ومحبتها اياه ، وكثيراً ما كان يستقبل البعض من الباب ويودعهم الى الباب وحيناً الى ابواب دورهم !

ولأول مرة من احدى الليالي يجلب اهتمامنا صوت جيمي وهو يعوي عواء أشبه بعواء الثعالب ، ولم ندر كم مر عليه حين بدأ يطلق صوتاً مشوباً بأنة ممدودة كما لو كانت منطلقة من الاعماق ، وأمسى يرددها ويكررها طوال الليل بين كل فترة وأخرى ... !!

واتصلت هذه الاصوات الشبيهة بالآنات الممدودة ، وبعواء الثعالب ، لقد اتصلت بجميع الجيران ، فجاءنا غير واحد منهم لينبهنا الى ان هذا الضرب من العواء انما هو نذير شؤم ليس الى تداركه من سبيل بغير قتل الكلب أو ابعاده ، وان عواءه هذا ليس إلا نعياً ينعى به نفسه أو ينعى أحد الاعزاء من اهله .

فقلنا ـ وما الدليل ...؟

قالوا ـ التجربة . . . أفلا تؤمنون بالتجربة . . ؟ ان امر هذا العواء معروف ، ولا مرد لذلك بغير التعجيل بقتل الكلب ، اما اذا شق عليكم ذلك فأبعدوه !! ابعدوه عنكم ، أو دعوا من يتولى قتله ...!!

وعبثاً حاولت ان افهم الأهل والجيران بأن هذا هراء محض ، وإن العشرات من الكلاب لتعوي مثل هذا العواء واكثر ، فاذا كان كل عواء نذيراً بموت كلب أو موت عزيز لهلكت الكلاب جميعاً ولهلك الناس الاعزاء .

ولم يفد هذا المنطق مع الاهل ، والجيران ، والمعارف ،

وبدأ الحب الذي طالما حبي به هذا الكلب يتحول الى حذر وخوف عند البعض ، والى كره ومقت عند البعض الآخر !! فلم يعد الداخلون الى بيتنا والخارجون منه يعنون بالكلب ، ويسعون الى تدليله كما كانوا يفعلون أولاً ! !

وأحس جيمى - وجيمي ذكي - بأن الوجوه ليست تلك الوجوه التي يعرف ، وانه لم يعد له بين تلك الجموع محل من عيونهم فكيف بالمحل فى قلوبهم ، وهؤلاء اهله يتنكرون له كتنكر الجيران وزيادة ! وكادوا يحملونه الى مدينة بعيدة ويسيبونه هناك لو لم تلق ابنتنا الصغيرة بنفسها عليه والدموع تنحدر من عينيها قائلة :

- لن اترككم ... لن اترككم تذهبون بجيمي ... انني سأموت ان فعلتم ذلك ...

وترك الكلب اكراماً للطفلة ، وراحت تحدب عليه ، وتوليه من العناية والاهتمام الشيء الكثير ، بينما راح الجميع ينفضون عنه ويتناسونه ، وادرك الكلب انه ممقوت مكروه فقبع فى ركن مهجور من الحديقة ، وظهر عليه شيء غير قليل من الخمول والذلة ، وحينما كانت ابنتنا تعود من المدرسة وتمر به كان يلقي بنفسه

بين رجليها ويبكي كما لو كان لم يرها منذ سنين ! !

وامتد عواء الكلب ، وراجعنا البعض من الجيران مبدين خوفهم على انفسهم من هـــذا العواء ، وقالوا : اذا كنتم انتم لا تؤمنون بهذه التجربة فليس من الانصاف الاستهزاء بايمانناً نحن... اننا نخاف من عواء كلبكم على انفسنا ، وان عليكم ان تبعدوه اذا لم تشاؤا ان تعدموه .

ونزلنا اخيراً على حكم الجيران واتفقنا مع احد المشتكين منهم على ان يحمل جيمي في جنح الليل ويبعد به دون ان يدع ابنتنا تعلم بذلك .

وخلا البيت منذ شهور من ذكر جيمى ، ولكن ذهن الطفلة لم يخل من اسمه وذكراه على رغم تأكيدنا لها بأن الكلب قد هجرنا من تلقاء نفسه ، فالداخل الى غرفة نومها يرى فى أعلى سريرها من الجدار لوحة من (المقوى) وقد كتب عليها بخطها الضعيف البيت التالي :

ان قيل من أوفى أحبتكم

أرخت : « أوفاهم لنا جيمى »

الوردة الحمراء

* * *

كان شاعراً ، وأمنية الشاعر صعبة المنال ، بعيدة التحقيق ، لقد كان يريدها عروساً لشعره ، وغذاء لروحـــه ، وحركة لسكونه ، وسكوناً لحركته ، ونوراً لحياته يهتدي به في دجنة الهموم والمعضلات ، وايماناً يملأ به نفسه لتمتلي بالرجاء والأمل.

وان الرجاء والامل أس الحياة الهنية ، وبهجة الدنيـــا الفارهة .

* * *

ولما لم يجد عروسه في عالم الحقيقة ، لم يصعب عليه وهو الشاعر ان يجدها في عالم الخيال .

فاستعار لونها من لون الفجر الضاحك .

وبريق عينيها من لمعان السيوف .

وامتداد انفها من استقامة القلم .

ونضد اسنانها من لئالي البحار .

وابتسامتها من شروق الشمس .

وتقطيبها من الغروب الذي يشيع الوجـــوم فى النفس ويبعث على التأمل .

* * *

وقال لرقبتها طولي فى تناسب .

ولنهديها ابرزا فى تناسق .

ولخصرها ضق حيث يجمل الضيق .

وقال لقدها : اعتدل حيث يحلو الاعتـدال ، ولأعضائها تناسبي واتزني .

ثم استعار شعرها من الحرير .

وفتور جفنيها من سكرة الخمرة .

واستعار رونقها المائج من الزهرة الندية .

فكان له من كل هذا نصف ما اراد .

* * *

وراح ينسج النصف الآخر على منوال آخر .

فاستعار صفاءها من صفاء السماء ، وطهارة نفسها من براءة الطفولة .

ووداعتها من وداعة الحمام .

وأحلامها من آفاق المحيط .

وشعورها من أدق الاحاسيس

واضفى عليها من مواهب الغيب ما جعلها شاعرة ، مرهفة الحس ، متحدثة بارعة الحديث ، لصوتهـــا نغمة ، ولنغمتها جرس ، ولمعانيها حلاوة .

* * *

واتحد الجمال من وجهتيه المادية ، والمعنوية ، الجسمية والروحية ، وقال لهــا كوني وردة زاهرة ، باهرة ، فتانة ، ساحرة ، فكانت ... واذا بها العروس التي جبلها الشاعر فى عالم خياله آية للجمال والجلال ، والشعر والالهام .

وبحث فما ابعد من وجدها فى دنيا الحقيقة عمن جبلها فى دنيا الخيال .

ومر زمان فى حسابه ، ومرت دهور ، وجاء اليوم الذي التقت فيه عيناه - وهو أشد ما يكون يقظة وانتباهاً - عيني هذه العروس الرائعة الجميلة ، والساحرة الجذابة والفتانة الباهرة التي تملأ نفس الشاعر وروحه وقلبه حباً وجذلا ، وبهجة وسروراً ، فكانت (دنياه) بل كل وجوده في دنياه ، واذا بالخيال يصبح حقيقة ! واذا الصورة تقفز من صفحة ذهنه لتشخص أمام عينيه فى هيكل من لحم ودم ، وروح يضفي على هذا الوجود سحراً يجذب به النفوس فى اشد ما يجذب به المغناطيس الحديد .

لقد وجدها فى دنيا الواقع .

فاستماله جمالها ، وخلبته روعتها ، وجذبه سحرها ، واستأسره أريجها ، فاندفع اليها بكل عواطفه واحاسيسه ، حتى اذا دنا منها أو كاد ، ألفاها وردة حمراء !!

والوردة الحمراء (كافروديت) لا يمكن ان تكون لواحد دون آخر .

انها محبوبة الجميع .

وملتقى أمانيهم .

انها ليست له وحده .

بل الجميع يريدها لنفسه .

والشاعر المرهف الحس اشد الناس انانية ، فانحنى عليها سائلا :

_ أأنت لي وحدي ؟

أأنى منك كما انت من نفسي ؟

وكما تتقلص الوردة وتجمع اكمامها على نفسها عند هبوب نسمة الفجر الباردة حتى لتوشك ان تنطق الشفاه فلا ثغر يعبق ، ولا لسان يهمس .

هكذا التوت الوردة الحمراء !!

وهكذا انكمشت على نفسها !!

لأنها لا تريد أن تكون لواحد دون آخر

ذلك لأنها وردة حمراء .

الوردة التي كانت ولم تزل منذ أول تحسس الانسان بجمال الورود ، وفتنتها ، وسحرها ، مطمح أنظار العشاق ، ومهوى افئدتهم ، ولذة أرواحهم .

وهنالك أدرك انه انما أحب ما يحب اكثر الناس ، وانه ليسمع منها ما يسمعه الآخرون لا اكثر ولا اقل .

وعلم بأنه لن ينعم بعد هذا بعروس شعره كما كان ينعم بها اولاً يوم كانت له وحده دون سواه .

وهنا عرف جيداً مأتى شقائه فأطرق ملياً ، ولم يرفع رأسه إلا وهو يتمتم :

« الوان ازهار الحقول كثيرة

وانا الشقي فتنت بالحمـــراء »

الفهرست

This book can be obtained from the author
Sayid Jâfar Al-Khalily
BAGHDAD-IRAQ

تنبيـــه

بين هذه القصص الجديدة ثلاث قصص قديمة كانت قد نشرت فى السنوات البعيدة ، وقد آثرنا اعادة نشرها هنا مع هذه المجموعة الجديدة تيسيرا لمن خصها بعنايته وطلبها فلم يحصل عليها بناء على نفاد مجاميعها فاقتضى التنبيه الى ذلك .

مؤلفات الخليلي

المهيأة للطبع والتى فى طريق التهيؤ

١ ـ **كنت معهم فى دار المجانين** ـ دراسة عامة لدار الشفاء ببغداد ، وبعض أعراض هذا المرض وعلله وأسبابه .

٢ ـ **يوميات** ـ آراء وأفكار مستخلصة من حياة الناس العامة ، (الجزء الثالث) .

٣ ـ **مجمل تأريخ القصة العراقية** ـ دراسة عن القصة والقصاصين العراقيين المحدثين مع مقدمة ضافية عن تأريخ القصة العربية .

٤ ـ **التمور قديما وحديثا** ـ (تحت الطبع) يتناول النخلة من أول نشـأتها الى آخر مراحل استهلاك ثمرتها ، زراعة ، وصناعة ، وتجارة .

٥ ـ **أهل العقد** ـ مجموعة قصص تعالج العقدة وتعرض لمركب النقص عرضا طريفا .

٦ ـ **ثلاثة فى قارب** ـ طائفة من الآراء والافكار الجائلة فى ذهن مخضرمى العهد الجديد والقديم .

مؤلفات الخليلي

المطبوعة

١ ـ اولاد الخليلي ـ مجموعة قصص ـ

٢ ـ الضايع ـ قصة ـ طبعة ثانية

٣ ـ على هامش الثورة العراقية ـ حقائق لم يسبق نشرها ـ

٤ ـ عندما كنت قاضيا ـ استعراض مقتضب للاحوال الشخصية العراقية من زواج وطلاق ومواريث واوقاف ـ طبعة ثانية

٥ ـ يوميات ـ جزآن ـ صور مختلفة عن الحياة العامة ـ طبعة ثانية

٦ ـ جغرافية البلاد العربية ـ للدراسة المتوسطة ـ طبعة ثانية

٧ ـ حديث القوة ـ مجموعة قصص ـ

٨ ـ اعترافات ـ مجموعة قصص ـ

٩ ـ تسواهن ـ ريبورتاج عن الجمال والغناء والرقص في العراق

١٠ ـ من فوق الرابية ـ مجموعة قصص قصيرة متنوعة ـ

١١ ـ مجمع المتناقضات ـ قصص موضوعة ومترجمة ـ

١٢ ـ في قرى الجن ـ قصة ـ طبعة ثانية

١٣ ـ كنت معهم في السجن ـ دراسة عن السجن والمساجين في العراق

السعر ١٠٠ فلس